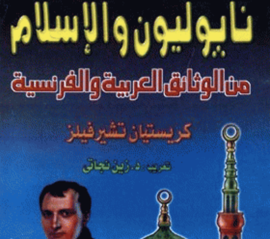


نابوليون والإسلام

من الوثائق العربية والفرنسية

كريستيان تشيرفيلز

تعريب . د. زين نجاتي

مكتبة الشروق الدولية

مقدمـــة

بقلم: داڤيد موسى پيدكوك

إنجلترا ـ مايو ، ١٩٩٧

لأن المنتصرين فى نزاعات الماضى هم الذين حددوا روايات التاريخ السائدة بيننا اليوم. أصبح من الصعب كثيرا أن نحدد مصادر هذه النزاعات .

الصراع الدائم والمستمر فى أيرلندا الشمالية وفى فلسطين يمثل دليلا على صحة هذا الافتراض فى النزاعات المعاصرة ، ويؤكد حماقة فرض تسويات سلام بدون تحقيق العدالة أولا . تشمل هذه الصعوبة أيضا العثور على مرويات محايدة عن ناپوليون وهروبه ، وتقدم بينة أخرى على أنها شكلت لكى تتوافق مع الخط الرسمى الذى يلائم المستفيدين فى الصراع الذين لم يكونوا هم عامة الناس فى إنجلترا ، وأيرلندا ، وسكوتلاندا وويلز ، بل بدلا من ذلك كانوا هم من ساندوا ويلينجتون والبرامج السلبية للدعاية السوداء التى منعت وصول صورة واضحة لإصلاحات ناپوليون إلى الفقراء والجماهير المقهورة فى المملكة المتحدة . الجماهير التى بعد انتصار ويلينجتون فى واترلو وتوليه رئاسة الوزراء ، أصبحت فى حالة أسوأ مما كانت عليه قبل ذلك . الحصادى السيء من عام ١٨٢٩م ومتاعب النساجين فى شمال إنجلترا ، بالإضافة إلى المعاناة القومية الشاملة ، أشير إليها فى خطاب الملك أنها « . . . بعيدة عن سيطرة الهيئة التشريعية أو الإصلاح » ، وترقد بوضوح أمام عتبة ويلينجتون . كرئيس للوزراء كان عليه أن يتحمل عبء الغضب العام ، ومثل ناپوليون من قبله ، أصبح هدفا لسخرية رسامى الكاريكاتير مثل ويليام هيث الذى رسمه ، عام ١٨٣٠ ، وهو مغمض العينين : « يلعب دور الرجل الأعمى ـ مع الفقراء » التعليق أسفل الصورة يقول : «لا يوجد أحد بهذا القدر من العمى مثل هذا الذى لا يرى» .

الدرس المهم المستمد من هذا الوضع هو فى الحقيقة أن جميع المرابين فى مدينة لندن، مثل بارينج وروثتشيلد وجميع أعضاء مجلس بنك إنجلترا، نجحوا فى استخدام ويلنجتون، ونيلسون، والقوات البريطانية لمنع أى تأثير لسياسات ناپوليون. أعتقد أن اللورد أكتون كان هو الذى تبنى فى وقت لاحق فى القرن التاسع عشر ، رؤية ناپوليون مع رؤى داڤيد ريكاردو وإبراهام لينكولن - أن العالم لن يتحرر من الحروب إلا بعد أن تنقلب موائد صيارفة المال وإلى الأبد.

لسوء الحظ، كما يوضح لنا تاريخ الحروب، ذهب نداؤه هباء ؛ لأنهم نجحوا من وقت لآخر فى جعل أمة تحارب أمة أخرى، بدلا من أن تحاربهم هم وسياساتهم المالية المدمرة. تركونا لكى نتأمل هذه الحقيقة، القضية التى توارت طوال القرون الماضية. والتى ينبغى إدراكها عاجلا أو آجلا، هى أن الشعب عليه أن يقاتل ضد البنوك.

كثير من الأساطير التى أنشأتها الوكالة البريطانية للدعاية السوداء، دمرتها بشدة مقالة كتبها چبس ماكرى فى مجلة الاكتشاف «Foecus» فى عددها الصادر فى أپريل ١٩٩٦.

الأسطورة الأولى هى أن ناپوليون كان طاغية فاسدا ليس لديه أى اهتمام بشعبه. « من المغرى أن نستنتج، كتب يقول: أن نرى بوناپارت وهو ينفق الملايين على آلة الحرب، يفعل القليل من أجل عامة الفرنسيين. الحقيقة أن إصلاحاته القانونية والدستورية كانت تسبق زمانها بقرن كامل. أحد أعمال حكمه كان وضعه لدستور ثورى، ثلاثة مجالس منتخبة كانت تصوت لإصدار القوانين الجديدة، ومحكمة استئناف مستقلة، وثلاثة مستشارين يتم انتخابهم كل ثلاثة أعوام. طرح الدستور أيضا لاستفتاء قومى، وأيدته أغلبية ساحقة فى ٣٫٠١١٫٠٠٧ صوت مقابل ١٫٥٦٢ صوتا. تشريع ناپوليونى آخر دائم هو القانون المدنى - الذى يعرف أيضا أنه قانون ناپوليون - الذى ما زال يسود قوانين فرنسا، وبلچيكا، ولوكسمبورج. الأسس التى يفرضها هى المساواة أمام القانون، وإلغاء النظام الإقطاعى، وحماية الممتلكات الخاصة ، وحرية الرأى، وحق الطلاق. أدخل ناپوليون فقرة تلزم الآباء بتغذية الأبناء إذا احتاجوا إلى ذلك - حتى إذا كانوا من

البالغين ـ لقد أثنى عن عزمه أن يعطى الأجداد حق حماية الأحفاد فى حالة سوء معاملة الآباء . **هذا لن يكون مذهلا بالنسبة للمسلمين، إذا ما أدركوا أن ٩٦ ٪ من مواد القانون المدنى (قانون نابوليون) ، استمدت من الشريعة الإسلامية المبنية على أساس فقه الإمام مالك .**

استمر ماكرى يفند بنجاح عددا آخر من الأساطير، مثلا أسطورة تقول: إن نابوليون كان مخادعا وكاذبا، لايستطيع أحد أن يثق به « وجهة النظر السائدة هى أن نابوليون كان عدوانيا مزق جميع المعاهدات ورفض صنع السلام. ولكن الحقيقة هى أن المخادعين الحقيقيين كانوا هم بريطانيا وحلفاءها. لقد سعى نابوليون مرارا إلى تحقيق السلام، ولكن ملوك أوروبا هم الذين رفضوه، واعتبروا أن نابوليون غير جدير بالثقة؛ لأنهم يحتقرونه ويخشون أن تكون ثورة فرنسا للتحول إلى الجمهورية معدية» . كما كتب السياسى الهويجى (عضو فى حزب بريطانى يؤيد الإصلاح عرف بعد ذلك بحزب الأحرار) إدموند بيرك إلى وزير الخارجية ويليام جرينفيل : «ليست عداوة فرنسا، بل صداقتها، هى الأمر المزعج حقا. تعاملها ومثلها وانتشار مبادئها أبشع كثيرا من أسلحتها» . أسطورة رئيسية أخرى هى أن إصلاحاته لم تحقق أى شىء : « خطأ آخر: معظمها مازال يعمل جيدا حتى يومنا الحاضر، نابوليون فتح المدارس الابتدائية وأسس نظام الليسيه الحديث، أنشأ الجامعات الجديدة، وعشرات من مدارس القانون وكليات تدريب المدرسين. الأموال التى أنفقت على التعليم فى عهد إمبراطورية نابوليون كانت أكثر مما أنفق على أى شىء آخر ـ وتم هذا فى زمن حرب دائمة ـ مدهش أن « إرهابيًا يعقوبيًا» قام بتشجيع إنشاء المدارس الخاصة، التى فاق عددها عدد المدارس التى أنشأتها الدولة الآن، نظام التعليم الفرنسى يسبق كثيرا نظام تعليم إنجلترا .

كل الشكر لنابوليون، الرجل المفكر .

عن موضوع نيلسون وويلنجتون، قال ماكرى: «ربما يكون نيلسون قد مات بطلا فى ترافالجار عام ١٨٠٥ ، ولكن نصره أخّر حرية أوروبا قرنا كاملا» رغم أنهما قائدان ذكيان، كلاهما كان قد جانب الصواب. بضرب نابوليون على الأرض والبحر، حرموا العالم من « الازدهار والحرية السياسية التى كان يمكن أن يتمتع بهما تحت حكمه» .

أمثلة أخرى للدعاية السلبية ضد ناپوليون توجد فى المرجع المهم الذى كتبه چون أشتون : «أعمال الكاريكاتور والهجاء الإنجليزية عن ناپوليون الأول» . ديباجة الطبعة التى صدرت عام ١٨٨٨ حملت الاعتراف التالى : « معظم الكاريكاتورات كانت هزلية، والأخرى سخيفة أوحاقدة، وبعضها فظ لايستحق إعادة نشره» . خاصة مايتعلق بأجداد ناپوليون، الذين قال أشتون عنهم : « لقد أسهبت كثيرا فى الحديث عن أجداده؛ لأن الهجائين الإنجليز لم يقولوا الصدق عن هذا الموضوع - لقد انحرفوا كثيرا بحماس اللحظة، وانقادوا إلى رغبات الغوغاء» .

الهجائون مثل چورچ كرويكشانك، الذى منح حرية مطلقة لرسم كاريكاتورات ناپوليون، انتقل من وكزات السخرية إلى الاعتراف، فى « تمثاله لناپوليون» هو أيضا انقاد إلى «رغبات الغوغاء» : أما أنا الذى حولته إلى هيكل عظمى غير ناضج، ونزعت عنه عبقريته من قبعته إلى حذائه، فإننى أنجزت فقط مبدأ تبنيته منذ صباى، لأننى أذكر الوقت الذى لم أشعر فيه بسعادة وطنية فى اضطهاد عدو إنجلترا الكبير. إن كان هو أقل من ذلك، سوف أشعر بوخز الضمير لقسوتى، اقتفيت أثره عبر الجليد وخلال النيران، فى الفيضان وفى الميدان، أهنته وحقرته وسخرت منه فى كل مكان، طوال هذا الوقت، مع ذلك كان هو يسير فوق الأهرامات وفوق جبال الألب، مثل الصبية فوق الأعمدة، ويلعب القفزية(*) (لعبة ينحنى فيها واحد ويقفز الآخر على ظهره) مع ملوك أوروپا، ويركل تاجا مع كل قفزة يقوم بها .

بالتباين مع ذلك، كتاب كريستيان تشيرفيلز هذا يحاول أن يقدم لنا سيرة أكثر توازنا عن ناپوليون الأول، تمثل أهمية خاصة للمسلمين لما بها من روايات شهود العيان للأحداث والمناقشات التى حدثت منذ حوالى ٢٠٠ سنة مضت بين ناپوليون وشيوخ الأزهر فى القاهرة، والتى تساعدنا على تكوين تقييم أكثر دقة عن مشاعره الدينية، وحساسياته، وسياساته الرسمية حول الدين، التى بعبارة معتدلة، كانت عكس خليط الافتراءات السخيفة الحاقدة، والفظة التى كانت مع استثناءات قليلة، هى مخزون سلع معظم المؤرخين والمعلقين البريطانيين منذ ذلك الحين وإلى وقتنا هذا. من المدهش أن هذا الكتاب الذى ظهر لأول مرة عام ١٩١٤ ميلادية، لم

(*) نطة الإنجليز .

يستخدم بفاعلية أكثر لتصحيح سجل التاريخ . وأيضا لم يبذل العرب الذين يعيشون تحت حكم الاستعمار الفرنسى ، جهوداً أكبر لاستخدام محتوياته لنزع أسلحة من يستعمرونهم . أسس معظم - إن لم تكن جميع - الصراعات المحلية والدولية كانت نتيجة للمظالم الاقتصادية التى تتدفق عبر الحدود القومية . سجلات الأرشيف توضح أن ناپوليون أدرك ذلك ، خاصة كيف أن ذلك أثر على العلاقة بين فرنسا وإنجلترا ، وكيف أن نظام إنجلترا المصرفى شجع على انتشارها فى المحيط الدولى ليبعدوا الأنظار عن أعمالهم الخبيثة . بنوك الاحتياط والمصرفيون هم وحدهم الذين استفادوا من اقتصاديات : أفقر جارك ، التى سادت العالم منذ إنشاء بنك إنجلترا عام ١٦٩٤ . فى الماضى ، كما هو الحال الآن ، نجح هذا النظام دائما فى تحويل الأنظار بعيدا عن الدور الذى يلعبه فى خلق عوامل العجز المالى ، التى سببت حروب التجارة ، التى تصاعدت إلى شتى أنواع القتال . السمة المميزة لنظام إنجلترا المصرفى كانت بإلقاء اللوم على ضحاياه ، أو على عدو خارجى ، بسبب الصعوبات التى سببتها سياساته ، أدرك ناپوليون أن المشاكل التى أزعجت أوروپا فى ذاك الوقت - مثل مشاكل الزمن الحاضر - كانت نتيجة لتضخم الديون بسبب الفوائد التى تفرض على الديون ، وهو ما جعله يتخذ خطوات نحو إزالتها . فى هذا الموضوع وحده ، وقف ناپوليون رأسا وكتفا أعلى من ويلنجتون الذى كان آلة فى يد آل روتشيلد . عندما عرضوا عليه رسما بيانيا عن إعادة سداد الدين بسبب الفوائد والفوائد المركبة ، قيل إن ناپوليون علق عليه قائلا : **« من المدهش أن وحش الفوائد هذا لم يبتلع الإنسانية جميعها ، كان يمكن له أن يفعل ذلك منذ وقت طويل إن لم تعترضه سموم الإفلاس والثورة»** . هذا يساعد على تفسير اتفاقه مع مجلس اليهود الأعلى (السانهيدرين) بفرنسا الذى تم من خلاله توقف اليهود عن تقاضى الربا على القروض . فى التاسع من شهر فبراير عام ١٨٠٧ ، اجتمع الحاخام داڤيد سينزهايم مع ٤٦ حبراً ومع ٢٥ من عامة الناس فى «فندق المدينة» وأكد المجتمعون موافقتهم على القرار الذى اتخذه حبرهم . **كما ذكرنا سابقا يجب أن نتذكر دائما أن «قانون ناپوليون (القانون المدنى)» ، الذى كان له تأثير عملى ، ساعد على تحرير يهود أوروپا من العبودية ، كان إسلاميا بالكامل تقريبا** . علاوة على ذلك ، لايوجد شك أن فترة الأعوام الستمائة التى قضاها الإسلام فى إسپانيا ، والتى يسميها

اليهود «عصرهم الذهبى»، التى كان اليهود، والمسيحيون والمسلمون يعيشون أثناءها فى توافق، يمكن عزوها إلى غياب الفوائد الربوية على المعاملات المالية. رغم أن «الصراع كان دائما يصاحب نظام الفوائد، إلاأن الناس ـ قليلا ما يذكرون.

من وجهة النظر اليهودو / مسيحية، كراهية نابوليون يمكن أن تفهم بوضوح ـ خاصة فى ضوء تحوله الرسمى إلى الإسلام فى نهاية القرن الثامن عشر. عقب ذلك، قام رسام الكاريكاتور، چيمس جيللارى، بتصوره مرتديا عباءة، مع تعليق يقول: **« دين ديمقراطى ـ ناپوليون أصبح تركيا»**، هذا قد يكون رد فعل للعناوين الرسمية فى صحف « الجازيت ناشيونال» أو «المونتير ينيڤيرسيل» التى أعلنت تحول ناپوليون إلى الإسلام يوم ٦ ديسمبر عام ١٧٩٨، واتخاذه إسم « على بوناپارت». هذا يوصلنا إلى موضوع الجدل. المهم حول محتويات هذا الكتاب. يتضح من قراءة الديباجة التى كتبها الشريف عبد الحكيم، أنه بالتأكيد كان يعلق على فقرات مختارة دون دراية ببقية محتويات الكتاب، لأنه يتحدث ببساطة عن «حب» ناپوليون للإسلام وعن « إقامته المباركة» بين المسلمين. من الناحية الأخرى لدينا موقف ممن يدعون أنهم مسلمون مطلعون، الذين حاولوا شجب تحوله إلى الإسلام باعتباره عملية تجميلية بحتة: «مقامرة نفعية لمغامر ذكى ساحر، يعتنق عند الضرورة أى عقيدة يرى أنها لازمة لتحقيق أهدافه». متحدثا من تجربتى الشخصية كسياسى أوروبى نشيط تحول إلى الإسلام، نشر هذه الحقيقة كان لايمكن له أن يساعد ناپوليون سياسيا؛ لأنه يثير القوى المتباينة للإلحاد ولرأس المال إلى تحالف حماسى مؤثر له مصادر تمويل غير محدودة ـ لتعبئة قدر كاف من الرجال والمواد والدعاية السوداء لإفساد إصلاحاته. إحدى العقبات العشرة التى تعيق المسلمين وهم يدرسون هذا الكتاب، ويحولونه إلى سلاح مفيد، يبرز من بيان طائش لناپوليون تحدث فيه عن اعتقاده أنه قد قدر له أن ينجز انتصارات حربية أعظم من تلك التى أنجزها النبى محمد ﷺ، الرجل الذى يبجله كثيرا: (انظر الوثيقة رقم ٣٨).

علاوة على ذلك، ناپوليون كان يعتقد أنه (مثل المهدى)، قدر عليه أن يلعب دورا رئيسيا لإعادة إحياء الإسلام. لم يكن هذا أمرا غير طبيعى بالنسبة للمتحمسين ممن تحولوا إلى الإسلام. حملته الروسية، طبقا لماكنيرويلسون، لم تكن عملا طائشا غير مدروس، بل كانت وضعا فرض عليه من خلال خيانة

غادرة . من الأفضل أن يتذكر المسلمون أن المهدى السودانى الذى اجتذب عددا ضخما من الأتباع ، لايمكن أن يكون الإنسان الذى قدر له أن يعيد إحياء الإسلام ، إذ لم تتوفر لديه السمات التى جاءت فى أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة . لم يكن أمرا غير مألوف ، حتى بين أنبياء الله الملهمين - عليهم السلام - جميعا ، أن تدخل بعض عناصر الأمنيات الشخصية فى الرسالات التى عهد الله إليهم بها ، أمر وضح تماما فى الآية ٥٢ من السورة ٢٢ [الحج] من القرآن :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَسُول وَلا نَبيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنيَّته فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاته وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾ . . .

نابوليون ، مع ذلك ، هو مجرد إنسان . قيل إن ذلك - ذكرى نابوليون بقلم المحلل والناقد البريطانى ، ويليام هازليت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) - هو تمجيد لائق لبونابارت ، الذى يجب أن ينظر إليه ، على أى حال ، باعتباره إنسانا مستنيرا ، خاصة إذا قورن بأمثال نيلسون ، وويلينجتون ، آل روتشيلد :

« وضع قدمه على رقاب جميع الملوك الذين استعبدوا الناس : ، وأسرف فى قتل ملايين العبيد المأجورين ، الذين جاءوا بأوامر من أسيادهم لينكروا حق الآخرين فى الحرية . صرح العظمة والمجد الذى بناه ارتفع عاليا على الأرض باستعارة ما فقدته الإنسانية مرة تلو أخرى - بنيت جبهته الرائعة على مخلفات الآمال المحطمة والإيمان الممزق لأعداء الإنسانية . إذا لم يكن قد استطاع أن يحقق الحرية ، والسلام ، والسعادة لدولته ، فهو قد جعلها رعبا لأولئك الذين يغرسون النزاعات المدنية ويثيرون الحروب الأجنبية ، ويمنعهم من الاستمتاع بهذه النعم . أولئك الذين سحقوا الحرية بأقدامهم لم يستطيعوا على الأقل ، أن ينتصروا بيأسها وخجلها ، بل أصبحوا هم أنفسهم أهدافا للرثاء والسخرية . إصرارهم على البقاء فى ذروة الخطأ ، جلب عليهم ، تكرار الهزائم والكوارث ، والرعب والاعتداءات المتراكمة التى أعدتها كبرياؤهم المحطمة وحقدهم المحبط ضد الآخرين ، عادت عليهم عقابا عادلا مؤلما : كدسوا الفحم الملتهب فوق رؤوسهم : شربوا عميقا وطويلا مرارة كأس السم الذى أعدوه للآخرين ، التدمير الذى هددوا به أى شعب يجرؤ أن يقول : إنه حر ،

تدلى معلقا فوق رؤوسهم كجرف معد للسقوط عليهم وتدميرهم . وقفوا قليلا حائرين، ذاهلين عن أهدافهم الشريرة، وشعروا بضخامة أعباء الحرية ، وعظم متاعب قوتها . تخلصوا من عجرفة أبهة الدولة الملكية إلى ضآلتهم كرجال عاديين، هزموا فى انتقامهم، ضيعوا فريستهم، عريت خططهم من غرور كبريائهم، لم يبق لديهم شىء سوى حقدهم المشوه، لايجرؤون أن ينطقوا لفظا أو يحركوا إصبعا، سادة الأرض الذين كانوا ينظرون إلى الناس كأنهم فصيلة سفلية، ولدوا لكى يستخدموهم، ويستعبدوهم، يوجهون نظرة توسل إلى الناس، وبقلوب رعديدة وألسنة خادعة، يذكرون اسم الحرية؛ ليضعوا الناس ثانية فى قبضة يدهم الدنسة؛ لكى يخنقوا اسم الحرية إلى الأبد» .

[دون ريب، إشارة إلى من هم مثل لافايت، المصرفى الليبرالى الذى قال لدوق أورليانز، عقب ثورة يوليو، وهو فى طريقه إلى فندق المدينة : من الآن فصاعدا، سوف يسيطر المصرفيون] .

« قاوم انتهاكات الشرعية - هذه القوة الساحقة ، هذا الوحش الضارى، الذى كان يسرع الخطى نحو فريسته فوق أجساد وعقول الشعب جميعه، يضع خاتما فى أنفه، يستنشق اللهب والدماء - وانتصر، لعب بالتيجان والصولجانات ولبسها هو، وروض الكبرياء المتوجة وجعلها أضحوكة للأمم، هو رجل واحد، فعل هذا، وحينما كان يفعل ذلك، كان فى نفس الوقت ينقذ البشرية من العار الأخير . إذا كان ناپوليون فاتحا منتصرا ، فقد انتصر على المؤامرة الكبرى للملوك ضد حق الجنس البشرى أن يكون حرا . إذا كان هو طموحًا فإن عظمته لم تبن فقط على التسليم غير المشروط بحقوق الإنسان ، ولكن، مع ناپوليون ، ارتفع أيضا مجد الإنسان عاليا . إذا كان مستبدا وطاغية، فأولاً فرنسا كانت دولة محاصرة عسكريًا، لا يمكنها أن تدافع عن نفسها بطلقات ورقية من العقل؛ ثانيا، ولكن رئيسيا، هو لم يكن ولا يمكن أن يصبح، طاغية بحق إلهى، الطغيان فيه لم يكن مقدسا ، ولم يكن أبديا، لم يكن مرتبطا غريزيا بعصبة صداقة مع طغاة آخرين : لم تجزها جميع قوانين الدين والأخلاق» .

«كتاب ناپوليون والإسلام» : يقدم مساهمة كبرى فى فهم شخصية تعلقت ـ بوضوح ـ بالقرآن ورسالته ورسوله ﷺ بأكثر مما يُوصف بأنه اهتمام عابر سواء كان ناپوليون، أو لم يكن، يصوم رمضان ويؤدى الصلوات الخمس اليومية، ذلك له فى الحقيقة أهمية ثانوية (يوجد آلاف كثيرون ممن يقولون إنهم مسلمون وهم لايفعلون ذلك) ما له أهمية، مع ذلك، هو أنه أدرك بصدق أن الإسلام أسمى من أى دين فى أى مكان آخر، وأخذ الكثير منه لاستخدامه الذاتى، ولبناء إمبراطوريته. كما يقول القرآن: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] علاوة على ذلك، استنتج بصدق أن دين إبراهيم سوف يعاد إحياؤه من خلال علومه. تشير التطورات الحالية فى ماليزيا وأجزاء أخرى من العالم الإسلامى إلى أن المسلمين بدأوا يدركون هذه الحقيقة المهمة. لم يعودوا يكتفون بتكرار الابتهالات عن أمجاد الماضى ـ بدأوا الآن يتأملون نصائح الرسول، خاصة عندما قال: «اطلبوا العلم ولو فى الصين»(*). ونحن الآن فى بداية قرن جديد من يبرز لإحياء ثروات الإسلام سوف يحسن إذا تأمل رؤية ناپوليون:

« أرجو ألايكون قد فات الوقت الذى أستطيع فيه أن أوحد جميع الرجال العاقلين والمثقفين فى الدولة، وأن أنشئ نظام حكم متناسق، مؤسس على مبادئ القرآن، التى هى وحدها الصادقة، والتى يمكنها أن تقود الناس إلى السعادة . . . المسيحية تبشر فقط بالعبودية والتبعية . . . » (انظر الباب الرابع ـ رسالة ناپوليون الأول، رقم ٣ـ١٤٨) .

* * *

(*) [موضوع] جامع بيان العلم ١/ ٨٢٧، وقال الألبانى فى «ضعيف الجامع»: «موضوع»

ديباجــة

بقلم: الشريف عبد الحكيم

باريس - ١٠ / ٤ / ١٩١٤

الأمة الوحيدة فى التاريخ التى نشدت، لا أن تسيطر على الإسلام، بل أن تتحالف معه لكى تمدين بقية العالم ، كانت، دون ريب، هى فرنسا .

هذه السياسة شكلت أثناء حكم فرانسوا الأول، وقام ناپوليون بتنفيذها. ولكن أعاق ذلك الخلافات اللاهوتية التى لم تتوقف عن تعقيد طموحات السلالات الحاكمة. من ناحية كانت توجد عقيدة الثالوث المقدس المسيحية، وتوجد على الناحية الأخرى عقيدة التوحيد الإسلامية.

الآن، وضحت المشكلة، لم تعد موضوع الحملات الصليبية بأى معنى لها. بما أن العالم الإسلامى ما زال منقسما سياسيا، فقد ابتلعته القوى الأوروپية. ما هو الموقف الذى سوف تتخذه القوى الأوروپية، خاصة فرنسا؟

مع احترامها لعقائدهم ومصالحهم ، إما أن تقبل المسلمين كمواطنين لقوة الحماية، أو أن تعتبرهم كما مهملا؟ توجد فى الحقيقة سياستان فقط : إما أن تعامل هؤلاء المسلمين كشعوب مهزومة محتلة، أو أن تنظر إليهم كأطفال تبنتهم.

السياسة الأولى محفوفة بالمخاطر، إنها تعنى إقرار التفرقة والامتيازات التى تخلق فقط عدم الرضا مع جميع عواقبه.

السياسة الثانية - سياسة التبنى مبنية ببساطة على أساس العدل، بينما لاترتكز السياسة الأولى إلا على الاستبداد. أليست سياسة الإنصاف هى التى سوف تثبت صلاحيتها وبقاءها؟

جاءت لحظة الاختيار، فأى قرار سوف تأخذه فرنسا؟

يبدو لى أن طرح هذا السؤال يستلزم الإجابة عليه. أولئك الذين مثلى يعرفون بلدهم فرنسا ويحبونها، لايستطيعون أن يروا احتمال وجود أى تردد تجاه هذا الموضوع لدى سلالة الثورة الكبرى.

فى شمال إفريقيا، حققت فرنسا الهدف الذى لاحقته زمنا طويلا. هى الآن تضم داخل مستعمراتها عددا من السكان المسلمين يساوى على أقل تقدير عدد مواطنيها أنفسهم. بأى سياسة تحوى هذه الحشود، وكيف ترعاهم؟

لهذا الأمر، كرس المؤلف نفسه، باختيار ذاتى، ولكنه أذعن لسلطة كانت مبجلة فى العالم الإسلامى، وفى أوروبا.

بعد أن أحضره قدره إلى مصر، أقام نابوليون علاقة وئام، ليس فقط مع سلطان القسطنطينية، بل أيضا مع شريف مكة، وسلطان دارفور و«بيك» تونس، وتراسل مع صاحب تيبو، وهكذا أصبح العالم الإسلامى جميعه تحت أنظاره.

بالنسبة له، إذا تحدثنا بصدق، لم يكن الأمر موضوع غزو، بل موضوع تحالفات، وهذا يفسر سياسته فى مصر وجميع بلاغاته اللاحقة. كان مشرعا بقدر ما كان محاربا، حاول أن يتغلغل فى الإسلام، ويتعمق فى فهمه أكثر من هذا، هو أحب الإسلام، وأصبح واحدا منا.

أدعو الله أن يكون هذا الكتاب تذكرة مفيدة لإخوانى المسلمين لإقامة نابوليون المباركة بينهم، وأن يكون نموذجا للفرنسيين الذين يقودون الآن سياسة جزء كبير من العالم الإسلامى.

هذا هو هدف الكتاب.

عبد الحكيم ١٠ / ٤ / ١٩١٤ ـ باريس

ملاحظة خاصة:

موضوع هذه الدراسة هو فلسفى واجتماعى معا . نحن نبحث النظريات عن الإسلام التى وضعها وطبقها بوناپارت، أثناء حملته المصرية . تملكت فكرة الإسلام عقل الإمبراطور إلى درجة كبيرة ، ولكن تلك المسألة تقع خارج مجال هذه الدراسة، واستطعنا فقط أن نشير إليها بإيجاز .

البيانات التاريخية، التى جمعت تراكمت، وكان علينا أن نختار أكثر النصوص دقة، مهما يكن اتجاهها الظاهر .

يبدو أن هذه الوثائق تؤثر على ـ ليس فقط ـ ماضى العلاقات الفرنسية الإسلامية، بل أيضًا مستقبل هذه العلاقات .

الجـزء الأول

بونابـارت والإســلام

بونابارت والإسلام[١]

رسائل بريدية وتقرير عن الإدارة الداخلية

١٧٩٨ - ١٧٩٩

١- إعجاب بونابارت بالإسلام .

٢- تأثيرات وطنية وتمدينية .

٣- ظواهر دينية .

٤- آمال إسلامية .

٥- نتائج نظرية .

٦- نتيجة عملية : صنيعة واضحة لإعادة إحياء الإسلام بالعلوم .

كلمات لاتنسى، للشرق الأوسط جميعه، قيلت فى القاهرة عام ١٧٩٨ . أملاها، ووقع عليها، القائد العام بونابارت . لم يعد الأمر هو فرنسا وقوة مسلمة، بل إن فرنسا والإسلام نفسه ، على وشك أن يصبحا حلفاء عبر العالم . نهضة إسلامية، ونسيان محن الماضى، وفهم وتخلل مشترك وعميق للحضارات الشرقية والأوروبية - بدت أعظم الطموحات وكأنها قابلة للتحقيق .

بلاغات سياسية، قد يقول الإنسان، ربما تكون سياسية؛ ولكنها سياسية بونابارت .

جاء إلى مصر لحماية المصالح الاقتصادية[٢]، وقام بونابارت فورا بتوسيع القضية وفرض الاهتمام المنظور الاجتماعى . الأديان مثل اللقاحات؛ (الكلمة من

اختياره)، ثم قال: «أنا لا أرى فى الدين سر التجسيد(*)، ولكنى أرى سر النظام الاجتماعى»(**). واستطرد يقول: «إنه يعزو إلى السماء مفهوم المساواة التى تمنع الفقير من ذبح الغنى»(٣).

من الصعب أن يرى الإنسان أن هذا دين، أو فى الحقيقة الدين الوحيد الذى يمكن تبريره: هذا كان - على أى حال - أول بند فى العقيدة النابوليونية.

بين البيانات التى صدرت بعد ذلك، لايستطيع الإنسان أن يخفق فى ملاحظة أن نفس هذه الروح الدينية، تفصح عن نفسها، بأوضح ما يكون.

بوناپارت كان ربانيا. فعل أفضل من اتباع النمط السائد (كثيرا ماننسى أن أجدادنا هم الذين شرعوا عبادة الموجود الأعلى)، برغبته وإرادته أصبح ربانيا ملتزما.

مع ذلك، هو كان يعتقد - شكرًا له - أن شئون هذه الأرض يجب أن تحكم بأفضل أسلوب ممكن.

كقائد حربى، صمم على فرض الاحترام لجميع العقائد الدينية، وكان يشعر أنه هو نفسه مسلح جيدا بالإسلام، بنفس الدرجة التى نزعت بها روما سلاحه، وهو يلاحق سياسة فرنسا الخارجية.

أى تردد، وأى شكوك، يمكن أن تؤثر على مثل هذا القائد وهو يأمر جنوده - أبناء الثورة مثله - أن يكونوا متسامحين تجاه الإسلام، مثل تسامحهم تجاه الكاثوليكية، وأن يكونوا مبجلين لشيوخ الإسلام كتبجيلهم الأحبار الأساقفة؟

إذا ما ذهب إلى أبعد من هذا، رويدا رويدا، ألم يكن ذلك؛ لأن القيم الإنسانية والتأثيرات الاجتماعية للإسلام كانت تأتى إليه بوضوح أكثر فأكثر؟ (٤).

عند المسلمين، كل شىء بما فى ذلك القانون، ينبع من القرآن. لذلك، لايستطيع أحد أن يصل إلى الجماهير بدون مساندة من رجال الدين. تحدث

(*) تجسيد الإله فى جسد عيسى عند المسيحيين.
(**) يقصد فى الإسلام.

بوناپارت طويلا مع الشيوخ. اختارهم ليس فقط لنفوذهم وشخصياتهم، بل أيضا لذكائهم؛ مسترشدا بقراءة القرآن، سرعانا ما أصبح كطالب.

لم يعط ناپوليون اهتماما كبيرا للحضارة الكاثوليكية (سوف نسمعه فيما يلى وهو يتهكم بقسوة على فكرة الثالوث المقدس). لم يهتم كثيرا بالتبرعات المتقطعة، والعاصية أحيانا، مع العدالة والقوة التى تمثل ذلك صعوداً وهبوطاً معها(*). ألم تكن العدالة هى أساس القرآن؟ وعلى ضوء هذه الرؤية، ألم تكن مبادئه (القرآن) بالغة الصدق؟

التاريخ يلازم وجدان ناپوليون. بالتباين مع ضعف الإسلام الموجود، رأى هو فيه من جميع الجوانب الدليل على قوة حديثة ورائعة. هل ذهبت إلى الأبد هذه القوة وهذه الروعة؟، سأل نفسه. فى لحظة خاطفة، جمع ناپوليون جميع احتياطات الإسلام الديناميكية، افترض أنها شاسعة، وبدأ يستغلها لصالح فرنسا ولصالح الحضارة نفسها، مصيران توأمان يرى أنهما لاينفصمان.

هذا فى رأينا هو ما توضحه نصوص هذا الكتاب دون جدال.

* * *

(*) يقصد أن التبرع يخضع عند المسيحيين لإرادتهم، وليس فيه إلزام كالزكاة عند المسلمين. فالزكاة تمثل فرض العدل ـ المترجم.

القسم الأول
معلومات من المراسلات

١ - إعجاب ناپوليون بالإسلام

حتى قبل أن يترك فرنسا، قرر بوناپارت أن يدرس القرآن[٥]. فى توجه مهم نحو السياسة والأخلاق، أمرهم أن يحضروا إلى مكتبة معسكره نسخا من العهد القديم والعهد الجديد، ومن القرآن، والفيدا والأساطير، و«روح القوانين» للفيلسوف الفرنسى مونتيسكيو[٦].

يشير هذا إلى عزمه على متابعة مسيرة الأديان عبر الدول، وتبنيه هو نفسه لرؤية سياسية أخلاقية. فورا بعد وصوله إلى مصر، قام القائد العام بتحديد دور تمدينى لحملته، موحيًا باستمرارٍ بشبح الإسكندر.

الوثيقة (١)

رقم ٢,٧١٠ ـ بلاغ إلى القوات الأرضية[٧].

مقر القائد على متن الباخرة لورينت

٢٢ يونيو، ١٧٩٨

أيها الجنود:

أنتم على وشك القيام بغزو لا يمكن إحصاء قدر آثاره على حضارة وتجارة العالم.

أنتم بالتأكيد سوف توجهون للإنجليز ضربة مؤلمة سوف تصيبهم بتدمير مميت[٨].

سوف نقوم بتحركات مرهقة؛ وسوف نخوض عدة معارك، وسوف ننجح فى جميع أعمالنا، الأقدار تقف إلى جانبنا.

بكوات المماليك الذين أهانوا تجارنا، واضطهدوا سكان النيل التعساء، لن يكون لهم وجود بعد أيام قليلة من وصولنا.

الشعوب التى سوف نعيش معها هم من أتباع الرسول محمد ﷺ، البند الأول فى دينهم هو شهادة: **«لا إله إلا الله محمد رسول الله»**.

لا تعارضوهم؛ تعاملوا معهم كما تعاملتم مع اليهود ومع الإيطاليين، احترموا شيوخهم وأئمتهم، كما فعلتم مع الأحبار والقساوسة.

امنحوا الجوامع والفرائض التى أوصى بها القرآن نفس التسامح الذى منحتموه للأديرة المسيحية والمعابد اليهودية، ولدين موسى ودين المسيح.

الفيالق الرومانية حَمت جميع الأديان. سوف تجدون هنا أعرافا مختلفة عن أعراف أوروبا، عليكم أنتم أن تتكيفوا معها.

الشعوب التى سنعيش معها تعامل النساء بطريقة مختلفة عما نفعل؛ ولكن فى جميع الدول من يغتصب امرأة هو وحش.

النهب يغنى قلة صغيرة، ولكنه يصمنا جميعا بالعار. إنه يبدد مصادرنا ويجعلنا أعداء للشعوب التى نريد أن نجعلهم أصدقاء لنا.

المدينة الأولى التى سوف نقابلها، هى المدينة التى بناها الإسكندر. مع كل خطوة سوف نثير ذكريات يريد الفرنسيون أن يحاكوها.

إدارة الحرب[٩] **بوناپارت**

الوثيقة (٢)

رقم ٢,٧٢٣ ـ بلاغ

مقر القيادة، الإسكندرية

٢ يوليو، ١٧٩٨ ميلادية ـ ١٨ محرم، ١٢١٣ هجرية

بوناپارت، عضو «المجمع القومى»، القائد العام[١٠].

منذ زمن طويل، كان البكوات الذين يحكمون مصر يهينون شعب فرنسا ويسيئون إلى تجارها، قرب وقت حسابهم.

لوقت طويل، هذه المجموعة من العبيد، الذين اشتروهم من چورچيا والقوقاز، اضطهدوا أكثر مناطق العالم جمالا، ولكن الله الذى ـ يعتمد عليه كل شىء ـ قضى أن حكمهم يجب أن يزول.

يا أهل مصر، قالوا لكم: إننى جئت لكى أدمر دينكم، فلا تصدقوهم، قولوا لهم: إننى جئت لكى أعيد إليكم حقوقكم، وأن أعاقب من اضطهدوكم، وإننى أحترم الله ورسوله والقرآن، أكثر مما يفعل المماليك.

قولوا لهم: إن جميع الناس متساوون أمام الله، الحكمة، والمهارة، والفضيلة، هى الاختلاف الوحيد بينهم.

الآن، ما هى الحكمة والمهارات والفضائل التى تميز المماليك، حتى تخولهم وحدهم الحقوق إلى كل ما يجعل الحياة حلوة ولطيفة؟

أين توجد الضيعة الجميلة؟ إنها بحوزة المماليك. أين هى الأمة الجميلة، والفرس الجيد والمنزل الفاخر؟ كل هذا هو أيضا لدى المماليك.

إذا كانت مصر ملكا لهم، دعهم يظهرون الحجة التى أنعم الله بها عليهم، ولكن الله رؤوف رحيم بالعباد.

جميع المصريين سوف يُطلبون لشغل المراكز الإدارية، أكثرهم حكمة، وعلما، وفضيلة، سوف يحكمون، وسوف يصبح الناس جميعا راضين.

كان يوجد في الماضي مدن كبيرة، وقنوات عظيمة وتجارة طيبة بينكم، ما الذي دمر كل هذا، إن لم يكن جشع وظلم وطغيان المماليك؟

أيها القضاة، والشيوخ، والأئمة، قولوا للناس: إننا أصدقاء المسلمين الصادقين[11].

ألم نكن نحن الذين دمرنا البابا[12] لأنه كان دائما يحث الناس على محاربة المسلمين؟ ألم نكن نحن الذين دمرنا فرسان مالطة؛ لأن هؤلاء المجانين اعتقدوا أن إرادة الله هي التي أوجبت قيامهم بالحرب ضد المسلمين؟ ألم نكن نحن الذين كنا عبر القرون أصدقاء لله، وأعداء لأعدائه؟ ألم يكن المماليك من ناحية أخرى في ثورة دائمة ضد إرادة الله، وهم مازالوا ينكرونه؟ إنهم يتبعون نزواتهم.

سعداء - بالثلاثة - من يقفون معنا. سوف يزدهرون في المنزلة وفي الثروة. سعداء أيضا من يقفون على الحياد. سوف يكون لديهم الوقت لكي يعرفونا، وسوف يقفون معنا.

لكن الويل ثم الويل، لأولئك الذين يحملون السلاح مع المماليك، ويقاتلون ضدنا.

لا يوجد لديهم أمل، سوف يهلكون.

بند (١)

جميع القرى الواقعة في دائرة ثلاثة فراسخ من خط سير الجيش، عليها أن ترسل وفدا إلى قائد القوات تخبره بطاعتهم، وبأنهم قد رفعوا علم الجيش ذا الألوان الثلاثة: الأزرق، والأبيض، والأحمر.

بند (٢)

جميع القرى التي تحمل السلاح ضد الجيش سوف تحرق.

بند (٣)

جميع القرى التى تستسلم للجيش سوف ترفع جميعا مع علم السلطان العثمانى ـ صديقنا ـ علم الجيش أيضا .

بند (٤)

الشيوخ يجب أن يقوموا بحفظ وختم البضائع ، والبيوت ، والممتلكات الخاصة بالمماليك ، وأن يتأكدوا من عدم نقصان أى شىء منها .

بند (٥)

الشيوخ ، والقضاة ، ،والأئمة يستمرون فى مراكزهم ، كل مواطن يستمر فى الإقامة فى مكانه ، وتستمر إقامة الصلوات كالمعتاد كل يحمد الله على تدمير المماليك ، ويهتف الجميع : العزة للسلطان ، والمجد للجيش الفرنسى صديق السلطان ، واللعنة على المماليك ، وحظ سعيد لجماهير مصر

إدارة الحرب[١٣] **بوناپارت**

الوثيقة (٣)

رقم ٣,١٤٧ ـ إلى الجنرال مارمونت[١٤]

مقر القيادة، القاهرة، ٢٨ / ٨ / ١٧٩٨

. . . إمكانياتنا هنا تتحسن تحسنا ملحوظا يوما بعد يوم . اذهب نيابة عنى إلى الشيخ المسيرى واذكر له ، بين أشياء أخرى ، الأسلوب الذى احتفلنا به بمولد النبى ﷺ ؛ قل له إننى أعقد ثلاثة أو أربعة اجتماعات كل عشرة أيام مع القانونيين ومع أشراف القاهرة ، وأنه لا يوجد من يقتنع أكثر منى بطهارة وقدسية دين محمد ﷺ .

مجموعة ناپوليون[١٥] . **بوناپارت**

٢ـ تأثيرات وطنية وتمدينية

بالتأكيد، أثناء الحملة إلى مصر، لم يتوقف بوناپارت أبدا عن استخدام الإسلام للصالح، ولكن هذا الصالح كان متبادلا، تأكد ذلك منذ البداية وإلى النهاية.

الوثيقة (٤)

رقم ٢,٧٦٥ ـ إلى الإدارة التنفيذية

مقر القائد، الإسكندرية، ٦ /٧/١٧٩٨

. . . أثناء هذا الوقت، أرهقنا عرب الصحراء بطوابير من ٣٥ إلى ٥٠ فارسا، يغيرون على مؤخرتنا، ويهاجمون التائهين. لم يتوقفوا عن الإغارة علينا طوال يومين كاملين، ولكنى استطعت بالأمس أن أعقد معاهدة معهم، ليست معاهدة صداقة فقط، بل أيضا، معاهدة تحالف، ثلاثة عشر رجلا من زعمائهم الرئيسيين كانوا معى بالأمس، جلست فى وسطهم، وتبادلنا حديثا طويلا بعد أن اتفقنا على البنود، اجتمعنا حول مائدة، وتوعدنا بنيران جهنم، من جانبى أو من جانبهم، على كل من ينتهك اتفاقنا، الذى هو كما يلى:

«بالنسبة لهم، أن يتوقفوا عن مهاجمة مؤخرة جيشى، وأن يقدموا لى كل مساعدة يستطيعونها، وأن يزودونى بعدد الرجال الذين أطلبهم منهم للزحف ضد المماليك.

بالنسبة لى، عندما أصبح سيد مصر، سوف أعيدهم إلى الأراضى التى كانت ملكا لهم فى الماضى».

تستمر الصلوات كالمعتاد فى الجوامع، وأن يفتح بيتى دائما للأئمة، والقضاة المحليين، والأشراف، والرجال البارزين فى الدولة مثل المفتيين والزعماء الدينيين.

ستجد مرفقا بهذا:

١ ـ مذكرة إجرائية فى جلسة عقدها كبار الشيوخ وزعماء الدولة.

٢ ـ أوامر مختلفة أصدرتها لتقودهم رويدا رويدا فى اتجاه هدفى . هذه الدولة ليست أقل مما صورها الرحالة والرواة؛ إنها هادئة، وأبية، ومحترمة .

مجموعة نابوليون[١٦] . بوناپارت

الوثيقة (٥)

رقم ٢,٨٨٠ ـ إلى الجنرال كليبر[١٧]

مقر القائد ـ القاهرة، ١٩/٧/١٧٩٨

لقد استلمتها فورا، جميعها فى وقت واحد، رسائلك من ٢٢ ميّسيدور إلى ٣ ثيرميدور[١٨] . الطريق الذى سلكته أنت هو الذى يجب أن يسلك .

منذ يومين، أرسلت لك أمرا لتنظيم إقليم الإسكندرية؛ لذلك عينت للديوان (مجلس القضاء) الأغا (رئيس الرسميين) وعينت المندوبين المفوضين، الرجال الذين تعتقد أنهم أكثر ارتباطا مع الفرنسيين، وأكثر عداء لبكوات المماليك .

أنا لا أؤيد فقط، القبض على كُريِّم، بل إنك سوف تجد مع التعليمات المرفقة أمرا باعتقال عدد آخر من الأفراد .

أعظم ما كنا نخشاه، عند وصولنا، هو احتمال أن يسبقنا الإرهاب، الموجود كثير منه فعلا، والذى كان يمكن أن يعرضنا، فى جميع الشوارع الخلفية إلى مشاهد مثل التى حدثت فى الإسكندرية . يمكن جعل جميع هؤلاء الناس يعتقدون أننا حضرنا بنفس روح القديس لويس التى يحملونها هم معهم عندما يدخلون الدول المسيحية . لكن الآن تغيرت الظروف تماما، لن يؤسس سمعتنا ما فعلنا فى الإسكندرية، ولكن ما نفعله فى القاهرة، على أى حال، لخصت لك كل النقاط ونحن على علم تام بالأحداث .

إدارة الحرب[١٩] . بوناپارت

هذا الذى نسميه ـ نحن الأوروپيين ـ خطأ أنه «أسلمة» الحقائق[٢٠] ، لا يمثل

شيئا، من وجهة نظر المسلمين، أقل من كشف صدق الإسلام برغم ما يبدو من غرابة، فإن الإسلام لا يحتاج فقط للمعرفة، إنه يتطلبها، وهو لا يتطلبها فقط، بل يسعى إليها[٢١].

أحاط الشيوخ بونابارت علما ببعض أحاديث الرسول المهمة التى تدور حول هذا المعنى. من جانبه، بونابارت يمتلك قدرة إقناع ترتكز على القوة (كما سوف يعلن علينا).

لذلك، هو والإسلام يمكن أن يعملا معًا.

نابوليون لم يكن راغبا فى الارتجال.

- ما هى أفضل إدارة يمكن أن يعطيها لدواوين الأقاليم؟
- ما هى التعيينات التى قد يوافق على تثبيتها بصفة نهائية؟
- ما هى القوانين التى تكون فعالة فى ضمان حقوق الورثة واجتناب إضاعتها؟
- ما هو النظام الذى يجب تقديمه للقضاء المدنى والقضاء الجنائى؟
- ما هى التحسينات التى يمكن وضعها لإقرار حقوق الملكية وفرض الضرائب؟
- كثير من مثل هذه الأسئلة قدمها نابوليون نفسه لديوان مصر[٢٢].
- هل يستطيع ضابط عظيم[٢٣] أن يسىء معاملة الديوان؟

القائد العام يتدخل فورا. هو لا يجيز القبض على أعضاء الديوان إلا بعد فحص دقيق ليثبت ما إذا كانوا مذنبين أم لا. . يجب على الإنسان أن يدرس الناس الذين يجد نفسه بينهم، ويضرب بنفسه أمثلة عادلة وصارمة أما النزوات والأعمال الطائشة فيجب على الإنسان أن يتجنبها بقدر الإمكان[٢٤].

التعاون متبادل حول جميع النقاط؛ إذا وجبت استشارة الدواوين، والاستماع إليها باهتمام، فإن علماء المعهد المصرى سوف يتوسعون فى أنشطتهم التمدينية.

هذا المعهد، الذى يشمل أكثر الأسماء لمعانا، يتكون من أربعة أقسام: الحساب؛ وعلوم الطبيعة، والاقتصاد السياسى، والآداب والفنون[٢٥].

منذ الجلسة الأولى[٢٦] طرح ناپوليون أكثر الأسئلة المتعلقة بالموضوع غرابة، ولكل سؤال منها، نادى على العلماء المختصين. لم يهمل شيئا، سواء أكان تطهير وإنعاش ماء النيل، أو موضوع المطاحن، أو صناعة الدقيق. ولكن آخر هذه الأسئلة يستحق اهتماما خاصا.

الوثيقة (٦)

رقم ٣,٠٩١ ـ الجلسة الأولى للمعهد المصرى

القاهرة، ٢٣/٨/١٧٩٨

... ما هو الوضع فى مصر بالنسبة للتعليم، والقانون، والقضاء المدنى والجنائى؟ ما هى التحسينات الممكنة فى هذه المجالات التى قد يريدها شعب مصر؟

مجموعة ناپوليون[٢٧] **بوناپارت**

قائمة رائعة من الأسئلة لم يبعدها ناپوليون أبدا عن نظره [٢٨].

الخطاب الذى ذكر سابقا، الذى ارسله إلى واحد من أحب چنرالاته[٢٩]، لم يشمل سرا واحداً، ولا توجد كلمة واحدة فى هذه الصفحة لا يمكن قراءتها على الشيخ المسيرى، الذى كتب إليه، فى نفس ذاك اليوم، خطاب لا يقل أهمية[٣٠].

أخيرا، خطاب إلى علماء، ونبلاء، وشيوخ، وأئمة، وفلاحى أقليم البحيرة، حدد الرباط التقليدى الذى أراد بوناپارت أن يبنيه بين أفكاره الدينية والأخلاقية وبين النظام المدنى.

الوثيقة (٧)

رقم ٤،٢٨٧ ـ إلى علماء، ونبلاء، وشيوخ وأئمة، وفلاحى إقليم البحيرة

مقر القائد، تيرانا، ١٧/٧/١٧٩٩

لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

جميع سكان إقليم البحيرة يستحقون الانتقاد الشديد؛ لأن العناصر الحكيمة والمستنيرة متهمة بأنها لم تكبح جماح الأشرار والجهلة، ولكن الله غفور رحيم. الرسول ﷺ فى بعض أحاديثه يقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(*)، وأنا كذلك تجاهكم. لقد منحت، بهذا المرسوم، عفوا عاما عن جميع سكان إقليم البحيرة الذين أساءوا السلوك، وأصدرت الأوامر بعدم إجراء أى تحقيق ضدهم. إننى آمل مع ذلك أن سكان الإقليم، بحسن سلوكهم، سوف يجعلوننى أشعر بأنهم جديرون بهذا العفو.

إدارة الحرب [٣١] **بونابارت**

هكذا يسير الدين والمجتمع المدنى معًا إلى الأمام، ومجال كل منهما يتزايد.

الوثيقة (٨)

رقم ٤،١٠٣ ـ إلى المواطن فورييه، عضو الديوان

مقر القيادة، قبل عكا، ١٩/٤/١٧٩٩

استلمت رسائلك العديدة، أيها المواطن.

إننى أجيز لك أن تتراسل مع المعهد القومى؛ لكى نحيطهم علما، باسم المعهد

(*) [صحيح] أبوداود فى: الأدب [٤٩٤١]، والترمذى. فى: البر والصلة [١٩٢٤]، وأحمد فى «مسنده» [٢/ ١٦٠].

المصرى، عن رغبته أن يتلقى سريعا التحقيقات العديدة التى طلب من اللجان المختلفة أن تقوم بها، والسرعة التى سوف يرد بها المعهد المصرى.

أَحِطْ ديوان القاهرة علما بالنجاح الذى حققناه ضد أعدائنا، والحماية التى قدمناها لكل من وقفوا معنا، والإجراءات القاسية التى قمنا بها فى المدن والقرى التى أساءت التصرف، شاملة جنين، موطن غرار، شيخ نابلس.

قل للديوان إنهم عندما يستلمون هذه الرسالة، سأكون قد استوليت على مدينة عكا، سوف أكون فى طريق عودتى إلى القاهرة، حيث إننى شديد الشوق للوصول إليها، بقدر اشتياقهم لرؤيتى.

أحد أول اهتماماتى سوف يكون دعوة المعهد للاجتماع؛ لنرى ما إذا كنا نستطيع اتخاذ خطوة أخرى للأمام نحو المعرفة الإنسانية.

مجموعة نابوليون[٣٢]　　　　　بونابارت

بعد أن قدم هذا التقدير والإجلال للإسلام، وللمدنية أيضا، أصبح لدى بونابارت الحق أن يتحدث بصوت عال وحاسم للشيوخ، والعلماء، والأشراف، وأئمة المساجد. هو لم يتوان عن فعل ذلك[٣٣].

من ناحيتهم، لم يتوقف الشيوخ من تقديم خدمات جليلة له. فى رسالته إلى الإدارة التنفيذية يوم ١٩/ ٦/ ١٧٩٩، التى صوّر فيها مغامرته مع «المهدى»، ذكر بونابارت أسماء الشيوخ الذين تعاونوا معه كثيرا. هناك توجد أهم المساعدات التى قُدمت للحملة الفرنسية. ما الذى جعل أمير الحج يتخلف؟. بونابارت يشرح هذا من خلال شخصية الأمير.

الوثيقة (٩)

رقم ٤,١٨٨ ـ إلى الإدارة التنفيذية

مقر القائد ـ القاهرة، ١٩/٦/١٧٩٩

. . . **ثورة أمير الحج** ـ أمير الحج، رجل ضعيف متردد، أغدقت عليه كرما وحنانا، ولكنه لم يستطع أن يقاوم المؤامرات التى كانت تدور حوله؛ وضع نفسه فى قائمة أعدائنا.

بمشاركته لقليل من عرب القبائل، وبعض المماليك، قدم نفسه إلى قائمة أعدائنا. مطاردا وملاحقا، خسر فى يوم واحد جميع الحسنات التى أغدقتها عليه، وخسر الثروات، وجزءا من أسرته كانوا لا يزالون فى القاهرة؛ وخسر سمعته كرجل شريف، والتى كانت له حتى ذلك الحين.

الملاك المهدى ـ شغب مع بداية شهر مايو، الأول من نوعه الذى نراه، وضع إقليم البحيرة فى ثورة. برز رجل من أعماق أفريقيا، هبط فى بلدة ديرنا، قابل العرب، وقال: إنه هو المهدى، الذى ذكره الرسول فى أحاديثه. وصل ٢٠٠ رجل من المغاربة بعد أيام قليلة، وكأنها مصادفة، ووضعوا أنفسهم تحت أوامره. من المفترض ألا يظهر المهدى للناس إلاّ بأمر السماء. هذا الدجال ادعى أنه هبط من السماء مباشرة إلى وسط الصحراء؛ كان هذا الرجل العارى تماما محملاً بذهب غزير، وكانت لديه القدرة على إخفائه. كل يوم يضع أصابعه فى إناء من اللبن، ويمر بها على شفتيه، وكان هذا هو غذاءه الوحيد الذى يمتصه. ذهب إلى دمنهور، حيث كان هناك ٦٠ رجلا من فيلق البحرية يقيمون فى معسكر مكشوف بدلا من إسكانهم فى حصن الرحمانية؛ فاجأهم وقطع رقابهم، بعد أن شجعه هذا النجاح، بدأ يثير خيال أتباعه، وادعى أنه عندما يلقى بعض التراب أمام مدافعنا، يمنع بارودها عن الاشتعال، ويجعل طلقات بنادقنا تسقط أمام أقدام المؤمنين، عدد كبير من الرجال شهدوا أنهم رأوا مئات المعجزات من هذا القبيل، التى كان يقوم بها كل يوم.

قائد اللواء، ليفيبڤار، ترك حصن الرحمانية مع ٤٠٠ رجل لمواجهة الدجال، وعندما رأى أن عدد الأعداء يتزايد كل لحظة، أدرك استحالة التعامل بنجاح مع هذا العدد من المتعصبين. شكل فرقته على هيئة مربع، وقضى طوال اليوم يقتل من يرمون أنفسهم أمام بنادقه. بالليل فقط قام المتعصبون بإحصاء موتاهم وجرحاهم - وجدوا أن القتلى فقط كانوا أكثر من ألف رجل - وأدركوا أن الله توقف عن صنع المعجزات.

يوم ١٩ مايو، وصل الچنرال لانوس إلى دمنهور، وحشد ١٥٠٠ رجل يحملون السيوف، وترك المكان كومة من رماد، المهدى نفسه جرح عدة مرات، وشعر أن حماسه بدأ يخبو، واختبأ فى غياهب الصحراء، يحيط به أتباعه.

مع ذلك، طبيعة هذه الثورة عجلت عودتى إلى مصر.

هذه الحركة غير العادية، خُطط لها؛ لكى تحدث فى نفس الوقت الذى كان فيه الأسطول التركى، الذى أنزل الجيش الذى دمرته فى عكا، على وشك الوصول إلى الإسكندرية.

معركة على قنال موييس - الچنرال لانوس، بعد أن أعاد الاستيلاء على إقليم البحيرة، لاحق المغاربة والمهاجرين إلى قرية كفر - فونيج بإقليم الشرقية، قتل ١٥٠ رجلا منهم، وأحرق القرية.

وصلت يوم ١٥ مايو إلى العريش فى طريق عودتى من سوريا. سخونة رمل الصحراء رفعت درجة الحرارة إلى ٤٤ درجة مئوية، وحرارة الجو وصلت إلى ٣٤ درجة مئوية، وكان علينا أن نرحل ١١ فرسخا يوميا لنصل إلى آبار بها قليل من الماء المالح الكبريتى الفاتر، وكنا نشربه بشوق أكثر من شوقنا إلى زجاجة شمپانيا فى مطاعم فرنسا.

دخلت إلى القاهرة يوم ٢٦، يحيطنى حشد كبير من الناس فى موكب يملأ الشوارع، مع جميع قوات البوليس من الأنكشارية والأغوات، وسلالات أبى بكر وفاطمة، وأبناء الأولياء الذين يبجلهم المؤمنون، وكبار المفتيين يمتطون البغال؛ لأن

النبى يفـضل هذا الحيوان، وكبار التجـار، وبطريرك الأقباط يسيـرون فى مقدمة الموكب، ويسير اليونانيون فى المؤخرة.

كـان يجب على أن أعبر عن رضائى للچنرال دوجـوا والچنرال لانوس وقـائد الكتيبة دورانتو.

الشيـوخ: البكرى، والشـرقـاوى، والسـادات، والمهـدى، والصـاوى ألزمـوا أنفـسـهم بأفـضل سلوك كنت أريده، بشـروا بـاسـمنا كل يوم فى المسـاجـد، كـان لتعـاليـمـهم أعظم تأثير على الأقـاليم. أغلبـهم كـانوا من سـلالة الخلفـاء الأوائل، ويتمتعون باحترام الشعب.

إدارة الحرب | بوناپارت

بوناپارت كان يتراسل. بانتظام مع شريف مكة. . اهتم بالاتصال به منذ البداية.

الوثيقة (١٠)

رقم ٣.١١٠ - إلى شريف مكة

مقر القائد، القاهرة، ١٧٩٨/٨/٢٥

مع إحاطتكم علما بدخول جيش فرنسا إلى مصر، أشعر بحاجتى أن أؤكد لكم عزمى الأكيـد أن أحـمى بجميع الوسـائل، رحـلات الحجـاج إلى مكة، و الجـوامع والمؤسسـات التى تمتلكهـا مكة والمدينة فى مصـر سـتظل ملكًا لهـا، كـمـا كـانت فى الماضى. نحن أصدقاء للمسلمين، ولدين النبى، نحن نرغب أن نفعل كل ما يسرك وكل ما هو فى صالح الدين.

أنا أريد أن يُعـرف فى كل مكان أن قـوافل الحـجـاج لن تتـعـرض لأى تدخل، وسوف نوفر لها الحماية بأسلوب يجعلها لا تخاف من العرب.

مجموعة ناپوليون | بوناپارت

هذا المبدأ ـ مثل الكثير غيره ـ أخذ به الإنجليز وطبقوه . فى عام ١٩٠٣ ، عندما قام الخديوى برحلة إلى مكة ، كلفوا فرقة قوية من الجيش المصرى بمصاحبته وحمايته ضد بدو شبه الجزيرة العربية . عدد من الشخصيات التركية من سوريا وآسيا الصغرى صاحبوا القافلة . نحن لا نقلل من شأن الأهمية السياسية لهذا العمل .

بالرغم من وضوح الرسالة السابقة ، قام بوناپارت ، بعد يومين لاحقين ، بالكتابة ثانية إلى شريف مكة ، يعطيه أكثر تأكيدات الإخلاص الرسمية .

كل هذا كان يدور حول الحماية الفعالة للمسلمين . الفكرة كانت عزيزة إليه ؛ وكان ينتظر رد شريف مكة مع عودة رسوله .

الوثيقة (١١)

رقم: ٣,١٣٦ ـ إلى شريف مكة

مقر القيادة، القاهرة، ٢٧/٨/١٧٩٨

إننى أسرع لإخباركم بوصولى إلى القاهرة على رأس الجيش الفرنسى ، وكذلك بالإجراءات التى اتخذتها لأحافظ لجوامع مكة والمدينة المقدسة على مصادر الدخل المكرسة لها . من خلال الرسائل التى سوف يكتبها لكم ديوان وتجار هذه الدولة سوف ترون قدر اهتمامى بحماية الأئمة ، والشرفاء ، ورجال القانون ؛ سوف ترى كذلك أننى عينت لأمير الحج ، مصطفى بك أبا ـ بحر باشا ، حاكم القاهرة ، وأنه سوف يقوم بحراسة القافلة بقوات تقيها من تطفل العرب .

أوَد كثيرا أن أعرف ، من خلال ردكم ، ما إذا كنتم تريدون منى أن أحرس القافلة بقواتى أنا ، أم فقط بقوات الفرسان من رجال هذه الدولة ؛ ولكن على أى حال أرجو أن تخبر التجار والمؤمنين ، أن المسلمين لن يجدوا أصدقاء أفضل منا ، وأنه لايوجد شيء يخيف التجارة ، لأنها سوف تجد حماية خاصة .

إننى أنتظر إجابتكم مع عودة رسولى .

لك أيضا أن تخبرني عن حاجتكم من القمح أو الأرز، وسوف أرى بنفسى أنها أرسلت إليكم.

إدارة الحرب[٣٤] **بوناپارت**

حتى نهاية إقامته فى مصر، كان بوناپارت مراسلا وصديقا لشريف مكة.

الوثيقة (١٢)

رقم: ٤,٢٣٤٠ ـ إلى شريف مكة[٣٥]

مقر القيادة، القاهرة، ١٧٩٩/٦/٣٠

بسم الله الغفور الرحيم.

لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

لقد تلقيت رسالتكم وفهمت محتوياتها. لقد أصدرت الأوامر التى من خلالها سوف أعبر لكم عن عظيم التقدير والصداقة التى أكنها لكم.

إننى آمل أنكم، بحلول الموسم القادم، سوف ترسلون عددا كبيرا من السفن المحملة بالبن وبالسلع الهندية. سوف نوفر لها حماية دائمة.

إننى أشكركم بما فعلتموه من نقل رسائلى إلى الهند وإلى الجزيرة الفرنسية. أرجو أن تنقل هذه أيضا وأن ترسل الرد إلى.

أرجو أن تثق فى احترامى لكم، وفى اهتمامى بصداقتكم.

بوناپارت.

أوراق طبعت بأوامر من القنصل الأول[٣٦].

الإدارة التنفيذية كانت تستشار بانتظام[٣٧] عن الخدمات التى لم يتوقف بوناپارت عن طلبها من شريف مكة مقابل الحماية التى قدمتها فرنسا للمسلمين[٣٨].

الوثيقة (١٣)

رقم ٤,٢٢٥ - إلى الإدارة التنفيذية

مقر القائد، القاهرة، ٢٨/٦/١٧٩٩

. . . أنا لم أتلق رسائل من فرنسا منذ وصول مورو، الذى أحضر إلى أخبارا من يوم ٥ نيڤوس[٣٩] ومن بيللڤيل يوم ٢٠ بلوڤيوس[٤٠]. أرجو أن أتلقى رسائل أكثر دون إبطاء.

قلقنا الشديد دائما يدور حول فرنسا. إذا كان الملوك سوف يهاجمونها، سوف تجدون فى جبهاتنا الراسخة، وفى عبقرية الشعب القتالية، وفى چنرالاتكم، الوسائل الكفيلة بالرد على وقاحتهم ردا مميتا - أسعد أيامنا ستكون تلك التى نعلم فيها بتكوين أول جمهورية فى ألمانيا.

سوف أرسل إليكم قريبا رسما لقناة السويس، وخرائط لمصر بأكملها، مع قنواتها، وخرائط لسوريا كذلك.

لدينا علاقات منتظمة مع مكة. كتبت عددا من الرسائل إلى الهند والجزر الفرنسية. وأنتظر الرد بعد أيام قليلة. شريف مكة هو الوسيط فى هذه الرسائل.

مجموعة ناپوليون[٤١] **بوناپارت**

بوناپارت كان أول من تفهم الأهمية السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية للحج إلى مكة، أهمية ما زالت تعتبر - وإن كان من وجهة النظر الاجتماعية فقط - أنها لا تقبل الجدل[٤٢].

حجاج المغرب هم موضوع دراسة خاصة.

الوثيقة (١٤)

رقم ٤,٣٥٨ - إلى سلطان المغرب

القاهرة، ١٥/٨/١٧٩٩

لا إله إلا الله، محمد رسول الله .

بسم الله الغفور الرحيم .

إلى سلطان المغـرب، حـوارى الكعبـة المكرمـة، القـوى بين الملوك، والمؤمن المخلص بشريعة النبى الصادق ﷺ .

مع عـودة حـجاج المغـرب، أخذنا هـذه الفـرصـة لكى نكتب إليك هذه الرسـالة نحيطكم بها علما أننا قدمنا لهم جميع المسـاعدات الممكنة؛ لأننا نريد فى جميع المناسبات أن نفعل ما نستطيع لنقنعكم بقدر الاحترام الذى نكنه لكم. إننا نوصى أن تقـوموا، فى مـقابل ذلك، بحسن مـعاملة جمـيع الفـرنسـيين الذين يقـيمـون فى ولاياتكم، أو الذين تحضرهم شئونهم التجارية إليها .

مجموعة نابوليون[٤٣] **بوناپارت**

لا يوجد شىء أكثر صدقا من هذه السياسة. ألم تملها فى الوقت نفسه، أكثر المشاعر نبلا، وتكفلها معظم المصالح المشتركة؟

أما بالنسبة للتعصب، بوناپارت لم يتوقف أبدا عن أن يكون خصما له، ولكن من خـلال من يجب على الإنسـان أو يمكن لإنسـان منفرد أن يعـارضـه؟ من خـلال الشيوخ والشرفاء، من خلال جميع من يستخدمون وقتهم وإمكانياتهم فى تثقيف الناس[٤٤] .

بقدر ما كان بوناپارت يفضل دينا واحدا عظيما، ينظم ويساهم فى التنظيم، هو أيضا يبغض التعصب الدينى. عـامة الشعب قد يكونون متعصبين، ولكن رجـال الدين ليسوا كذلك. لذلك قام من خلالهم بمهاجمة التعصب؛ لكى يحاصر الوباء، ويهزمه بعد ذلك[٤٥] .

الوثيقة (١٥)

رقم ٤،٣٧٤ إلى الچنرال كليبر

مقر القائد، الإسكندرية، ١٧٩٩/٨/٢٢

المواطن - چنرال، سوف تجد مرفقا بهذا، أمرا بتعيينك قائدا عاما للجيش. الخوف من عودة ظهور الأسطول الإنجليزى من لحظة إلى أخرى أجبرنى على الرحيل يومين أو ثلاثة قبل الموعد المحدد . . .

أنت تفهم، مواطن - چنرال، ما كان عليه سلوكى فى الإشراف بنفسى على سياسة مصر الداخلية. مهما يكن ما نفعله، سوف يظل المسيحيون هم أصدقاءنا ولكن يجب أن تمنعهم من الغطرسة المفرطة، حتى لا يعاملنا الأتراك بنفس التطرف الذى يعاملون به المسيحيين، والذى قد يبعدهم عن التصالح. يجب على الإنسان أن يكبح التعصب حتى يستطيع أن يجتث جذوره[٤٦]. بتشكيل رأى كبار شيوخ مصر، يمكن تشكيل رأى مصر بأكملها، ورأى زعماء هذا الشعب. لا يوجد من هم أكثر خطرا علينا[٤٧] من الشيوخ الذين يخافون، والذين لا يعرفون كيف يقاتلون ومن يقاتلون، والذين هم مثل كل القساوسة، يثيرون التعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين . .

بعد أن تعودت رؤية الجزاء على الجهود والمحن فى حكم التاريخ، أنا أترك مصر بأسف شديد. مصالح الوطن الأم، وأمجاده، والإحساس بالواجب، والأحداث غير العادية التى ألمت به، جعلتنى أقرر العودة إلى أوروبا. بقلبى وعقلى سأظل معك؛ نجاحاتك سوف تكون عزيزة على كتلك التى كان يمكن أن أنجزها أنا، وسوف أعتبرها أياما ضائعة، جميع أيام حياتى التى لم أفعل فيها شيئا للجيش الذى تركته تحت قيادتك، وأيضا لتقوية المؤسسة الهائلة الذى وضعنا أساساتها فى التو . . .

إدارة الحرب[٤٨] **بوناپارت**

٣ـ ظواهر دينية

كان قدر بوناپارت ألا يندهش إطلاقا، وإنما يقود الناس من دهشة إلى أخرى.

عندما رأى جنوده، القائد العام لجيش الحملة الفرنسية وهو يترأس صلوات المسلمين، ارتبك أكثر من واحد منهم، ولم يحتج أى منهم. بقلبه كان بوناپارت يعتنق مبادئ الثورة الفرنسية.

هذه الروح الآن، المبنية على الربوبية الصادقة، أليست هى معيارا عظيما لروح المسلمين؟ [٤٩].

أثناء إقامته بمصر، وجه بوناپارت اهتماماته الخيرية، باطراد إلى أدق تفاصيل الحياة الدينية[٥٠] وهكذا عندما احتدت الخلافات مع تركيا، استطاع بطريقة شرعية سليمة أن يستشهد بالخدمات التى قدمها لقضية الإسلام. لقد وضع نفسه بحزم على أرضية المسلمين، قال: كيف يمكن لتركيا أن تكون صديقة لفرنسا عندما كانت فرنسا قوة مسيحية، وأن تبتعد عنها بعد أن كيفت فرنسا نفسها مع الإسلام؟ دع السلطان يتفهم جيدا أفضل مصالحه، وأن يدافع ضد التقسيم المستهدف لإمبراطوريته، بين روسيا وألمانيا[٥١].

نحن نعرف أن بوناپارت كان واضحا فى عدائه لفكرة الثالوث المقدس. بل كان يسعده أن يسخر منها.

الوثيقة (١٦)

رقم ٤,٢٩٦ ـ إلى الديوان فى القاهرة

مقر القيادة، الرحمانية، ٢١ / ٧ / ١٧٩٩

... يوجد على ظهر هذا الأسطول روسيون ممن اضطهدوا ممن يؤمنون بوحدانية الله؛ لأنه طبقا لافتراءاتهم يوجد ثلاثة منهم. ولكنهم سوف يرون بعد وقت ليس بعيدا أن عدد الآلهة لايصنع القوة، وأنه لايوجد إلا «أب» واحد للنصر،

هو الغـفـور الرحـيم، يقـاتل من أجل كل مـا هـو طيب. ويخزى خطط الأشرار، والذى بحكمته قضى بوجوب حضورى إلى مصر؛ لكى أغير صورتها وأستبدل حكم التدمير بحكم النظام والعدل، هو أعطى بذلك رمزا عن قدرته المطلقة، لأننا فعلنا ما لا يستطيع أبدا أن يفعله من يؤمنون بثلاثة آلهة ـ نحن الذين نؤمن بموجود أعلى واحد يحكم الطبيعة والكون

إدارة الحرب[٥٢] **بوناپارت**

علمـا بأن بوناپارت لديه مثل هذه الكراهية لعقيدة الثالوث المقدس(٥٣) هل يمكن للإنسان أن يتعجب كثيرا؛ لأنه تحدث بمثل هذا الحب عن دين النبى محمد ﷺ؟ «دين النبى محمد ﷺ الذى أحبه»، قال ببساطة وصدق[٥٤].

ما أثار دهشتى أكثر، هو رؤية القائد العام وهو يقوم بالأعمال الدينية التى هى ـ عادة ـ مسئولية الباشا.

الوثيقة (١٧)

رقم ٣,٩٥٢ ـ إلى الإدارة التنفيذية

مقر القيادة، القاهرة، ١٠/٢/١٧٩٩

. . . فى هذه المناسبة، اصطحبت معى المُلاّ، أكثر الرجال احتراما فى الإمبراطورية الإسلامية، بعد مفتى القسطنطينية، يحترمه شيوخ المذاهب الأربعة الرئيسية، ويحترمه أمير الحج.

شهر رمضان، الذى بدأ بالأمس، احتفلت أنا به بموكب عظيم؛ قمت بجميع المهام التى اعتاد الباشا أن يقوم بها.

إدارة الحرب[٥٥] **بوناپارت**

الوثيقة (١٨)

رقم ٤،٣٦٢ ـ أمر[٥٦]

مقر القائد، القاهرة، ١٦/٨/١٧٩٩

حكام الأقاليم، بخطاب دورى باللغة العربية سوف يرسل إلى جميع القرى، سوف يحاطون علما بفخامة الاحتفال بمولد النبى ﷺ الذى أقيم فى القاهرة.

لن يذكر الإنسان أنه رأى شيئا بمثل هذه العظمة.

جميع وحدات الجيش فى القاهرة، أنيرت بأعداد كثيرة من المشاعل، وقامت بزيارة الشيخ البكرى، حيث كان القائد العام يتناول طعام العشاء مع مصطفى باشا وجميع كبار الضباط الذين أسروا فى معركة أبى قير. القائد العام كان موجودا أثناء قراءة التواشيح فى مدح الرسول، وكبار الشيوخ يحيطون به، أمر بإقامة الصلاة، ثم استمع إلى قراءة السيرة النبوية، الباشا وجميع الأتراك المسجونين، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم وهم يرون قدر الاحترام الذى يكنه الفرنسيون للإسلام، والقانون، ولأحب الأنبياء إلى الله.

القائد العام أراد أن يبرهن على رضائه عن الشيخ غريانى حاكم الإسكندرية، والشيخ المسيرى رئيس ديوان الإسكندرية ـ رجلان يمجدان لحكمتهما وتقواهما ـ ألبس كلا منهما معطفا عظيم القيمة.

هذا الأمر الذى صدر اليوم سوف يترجم إلى اللغة العربية، ويطبع، وترسل ثلاثون نسخة منه إلى جميع حكام الأقاليم.

إدارة الحرب[٥٧] بوناپارت

عندما كان بوناپارت، قبل ذلك بسنة واحدة، يشكر مينو للتبجيلات التى قدمها للنبى محمد ﷺ، من كان يعتقد أنه سوف يذهب إلى هذا المدى؟

بوناپارت، مع ذلك، ذهب فعلا إلى مدى غاية فى البعد، وعقد الميثاق الأخلاقى . بين فرنسا والإسلام.

بونابارت كان له الحق إذا أن يكتب كلمة «قلب» وهو يتحدث عن التقارب بين فرنسا والإسلام (٥٩) هو، العنيد العظيم الذى لا يهدأ، كان ودودا تجاه الإسلام.

٤ ـ آمال إسلامية

هذه الآمال، أو التوقعات، توجد فى شكلين:

الأول، مادى، وفى نفس الوقت، أخلاقى ودينى.

أن تكفل فرنسا أعمال الإسلام، وأن المسلمين يمكنهم، من الآن فصاعدا، أن يعتبروا أن فرنسا تحميهم بصدق: هذه التأكيدات، كما رأينا، لم يتوقف بونابارت أبدا عن تقديمها بسخاء، ولم يتوقف أيضا عن الوفاء بكلمته.

الثانى، دينى بحت. البلاغ الصادر إلى جماهير مصر فعل أفضل من تصديق هذه الآمال، إنه قام بتكريسها(٦٠).

بل يوجد ما هو أكثر من ذلك. يوجد أيضا قبول الرمز. الهلال فى مقابل الصليب(٦١). ألم يكن هذا الاقتراح هو الذى برز من محصلة الوثائق التالية؟

نحن نطرح السؤال بدون أن نحاول مزج التعليق مع النصوص(٦٢).

الوثيقة (١٩)

رقم ٣,٠٧٧ ـ إلى المواطن بوڤوازينز

مفتش الديوان فى القاهرة

مقر القائد، القاهرة، ١٧٩٨/٨/٢٢

المواطن بوڤوازينز سوف يرحل إلى دمياط، ومن هناك سوف يصعد إلى باخرة تركية أو يونانية تأخذه إلى يافا، سوف يحمل معه الرسالة المرفقة الموجهة إلى أحمد باشا، سوف يطلب مقابلته، وسوف يروى له بصوت واثق أن المسلمين لن يجدوا فى أوروبا أصدقاء أصدق منا؛ وإننى قد تألمت كثيرا من الاعتقاد السائد فى سوريا أننى أخطط للاستيلاء على القدس وتدمير دين الرسول محمد؛ ويؤكد له أن هذه

الفكرة بعيدة عن قلبنا بقدر ما هى بعيدة عن عقلنا، وأنه يستطيع أن يعيش فى أمان، وأننى أعرفه من سمعته أنه رجل فاضل؛ وأنه يستطيع أن يطمئن تماما، إذا رغب أن يتصرف كما يجب مع الرجال الذين لايسيئون إليه، فإننى سوف أكون صديقا له، وأن وصولنا إلى مصر سوف لاينقص قوته، بل إنه يستطيع فقط أن يزيد قوته؛ وإننى أعرف أن المماليك، الذين قمت بتدميرهم، كانوا أعداء له، وأنه لايجب أن يخلط بيننا وبين بقية الأوروبيين، إذ إننا بدلا من أن نستعبد المسلمين قمنا بتحريرهم، وأخيرا سوف يروى له ما يحدث فى مصر، وأن الأنسب له أن يتخلى عن رغبة التسليح، وإقحام نفسه فى هذا الصراع.

إذا كان أحمد باشا غير موجود فى يافا، يجب عليه أن يذهب إلى القديس چين بمدينة عكا، ولكنه يجب أن يحرص أولا على رؤية العائلات الأوروبية، وخاصة نائب قنصل فرنسا، والحصول منهم على معلومات عما يحدث فى القسطنطينية، وعما يجرى فى سوريا

مجموعة ناپوليون[٦٣] بوناپارت

الوثيقة (٢٠)

رقم ٣,١٤٨ ـ إلى الشيخ المسيرى

مقر القائد، القاهرة، ٢٨ / ٨ / ١٧٩٨

الچنرال كليبر أعطانى تقريرا عن تصرفاتكم، وأنا سعيد به. أنت تعرف الاحترام الخاص الذى أحمله لكم منذ تعارفنا أول مرة. أرجو ألا يتأخر الوقت طويلا قبل أن أتمكن من جمع جميع رجال الدولة من الحكماء والمثقفين، وأن أقيم نظام حكم متوازن[٦٤]. مبنى على أساس مبادئ القرآن الصادقة، والتى يمكنها وحدها أن تسعد الناس.

أرجو أن تعتمد دائما على احترامى ومساندتى.

مجموعة ناپوليون[٦٥] بوناپارت

الوثيقة (٢١)

رقم ٣,٧٨٥ ـ إلى سكان القاهرة

مقر القائد، القاهرة، ٢١/١٢/١٧٩٨

عناصر فاسدة أضلت شريحة منكم، لقد هلكوا. الله أمرنى أن أكون غفورا ورحيما بالناس: لقد كنت غفورا ورحيما بكم.

أنا غضبت منكم بسبب ثورتكم. حرمتكم شهرين كاملين من ديوانكم؛ ولكنى أعيده لكم اليوم: سلوككم الحسن أزال وصمة ثورتكم.

السادة الشرفاء، والعلماء، وأئمة المساجد، أحيطوا الناس علما بأن أولئك الذين يعلنون أنفسهم أعداء لى لن يجدوا ملجأ لهم فى هذه الدنيا أو فى الآخرة. هل يوجد إنسان أعمى لدرجة أنه لايستطيع أن يرى أن القدر نفسه هو الذى يوجه جميع أعمالى؟ هل يوجد أى إنسان لديه شك كاف لكى لا يصدق أن كل شىء فى هذا الكون الشاسع يخضع لإمبراطورية القدر؟

أحيط الناس علما أنه منذ بداية العالم، كتب على أننى، بعد أن أقوم بتدمير أعداء الإسلام وقهر الصليب، سوف أحضر إلى هنا من الغرب البعيد، لأنجز المهمة التى فرضت على. ساعدوا الناس؛ لكى يروا أن فى القرآن الكريم، فى أكثر من عشرين آية، يوجد أن ما يحدث الآن قد قدر مسبقا، وشرح كذلك، ما سوف يحدث.

دعهم يتغيرون إذا، أولئك الذين لايمنعهم من لعننا سوى خوفهم من أسلحتنا؛ لأنهم وهم يدعون السماء ضدنا، هم يقومون بلعن أنفسهم. دع المؤمنين الصالحين يقومون بالدعاء من أجل نجاح جيوشنا.

أنا أستطيع أن أحاسب كل واحد منكم عن أكثر أفكاره سرية؛ لأننى أعرف كل شىء، حتى ما لم تتحدثوا به لأى إنسان، ولكن سوف يأتى يوم يرى فيه العالم

جميعه بالبينة، أن أوامر عليا هى التى توجهنى، وأن جميع جهود الإنسان لن تستطيع أن تقهرنى ـ سعداء أولئك الذين سوف ينضمون إلىَّ بنية مخلصة .

إدارة الحرب[٦٦] **بوناپارت**

ما يؤكد أهمية السياسات التى بدأ بوناپارت يعمل بها فى مصر، هو الهدف الذى وضعه لنفسه قبل أن يغادر أرض فرنسا: تطوير العالم حضاريا وعلميا، ليس باستبعاد الدين، بل باستبعاد الديكتاتوريات التى تؤيد حكم البابا المطلق .

بأى أسلوب نحكم به، ألم تكن هذه سياسة أوضحت نفسها تماما خلال الفقرات التالية؟

الوثيقة (٢٢)

رقم ٢,٤٧٠ ـ إلى الچنرال برون[٦٧]، قائد عام الجيش فى إيطاليا

پاريس، ٢/٤/١٧٩٨

. . . لديك الكثير لكى تفعله فى الدولة التى أنت بها . أرجو أن يكون هذا هو التكليف الذى تقوم بعده بالحضور والانضمام إلى، لتعطى الدفعة الأخيرة لأعظم مشروع لم ينفذ الرجال مثله قبل ذلك .

اجمع حولك رجالا موهوبين وأقوياء .

أنا أوصيك أن تحمى مرصد ميلانو، ومن بين الآخرين، أوريانو، الذى يشكو من السلوك تجاهه . . هو أفضل مهندس وجد حتى الآن .

مجموعة ناپوليون[٦٨] **بوناپارت**

كل شىء أعد مسبقا، لم تنس أى تفصيلات، إذا لزم الأمر، سوف يعود بوناپارت إلى التيبر؛ ليحمل معه المواطن مونج، وكذلك أوراق الدعاية المطبوعة باللغة العربية .

بالتراجع عن إجراءات بيع ممتلكات الكنيسة فى إيطاليا، وإنهاء سلطة الإكليروس، إن لم تكن سلطة البابا نفسه، كان بوناپارت يوازن فعلا بين هاتين

القوتين: مفهوم التسامح ومفهوم الدين، والتى كان يريد أن يلعب بإحداهما ضد الأخرى، طبقا للظروف.

الوثيقة (٢٣)

رقم ٢,٤٧١ ـ إلى المواطن مونج فى روما

باريس، ٢/ ٤/١٧٩٨

استلمت، ياعزيزى مونج، رسالتك المؤرخة يوم ٣٠ ڤينتوز(٦٩) لابد أن يكون ديسايكس قد وصل. أرجو أن تعطيه الرسالة المرفقة . . .

أنا أعتمد عليك وعلى الدعاية المطبوعة باللغة العربية، إذا لزم الأمر سوف أعود مع سرية إلى أعلى التيبر لإحضارك.

مجموعة نابوليون[٧٠] **بوناپارت**

ليس من الضرورة علينا أن نعود خلفا إلى دور بوناپارت السياسى فى القاهرة؛ دعنا فقط نلاحظ إلى أى قدر قام هو ـ وهو يستعد لمغادرة مصر ـ بتقييم حركة العالم التى قررها هو ومدها عبر العالم.

الوثيقة (٢٣أ)

(مكملة للوثيقة رقم ١٥)

رقم ٤,٣٧٤ ـ إلى الچنرال كليبر

مقر القائد، الإسكندرية، ٢٢/٨/١٧٩٩

. . . المركز المهم الذى سوف تشغله كقائد عام، سوف يضعك فى موقف يتيح لك استخدام المهارات التى منحتها الطبيعة لك؛ ما يحدث هنا له أهمية عظيمة، وعواقبها سوف تكون بالغة الأهمية للتجارة وللحضارة؛ هذا سوف يكون عهدا تؤرخ منه الثورات العظيمة.

إدارة الحرب[٧١] **بوناپارت**

فى هذه الثورات قد يدخل الإسلام كعامل حاسم . ويوجد اعتناء ضئيل أن البينة يمكن جمعها . بتفصيلاتها الكاملة[٧٢] .

نحن نتقدم بالشكر للسلطات الحربية التى مكنتنا من استخراج نسخ للوثائق التالية .

وثائق ومذكرات لم تنشر. تتعلق ببلاغ القاهرة.[٧٣]

مراسلات ناپوليون الأول

* لجنة .
* وزارة الحرب .
* سجلات تاريخية .
* مقر قيادة هيئة الجيش .

الوثيقة (٢٤)

نسخة طبق الأصل للجزء الثانى من النسخة الخطية لبلاغ كتبه الچنرال بوناپارت فور عودته من سوريا ووجهه إلى شعب مصر، باسم ديوان القاهرة

هو كثيراً ما يتعلم من الأدعية الموجودة فى القرآن التى بدأ يعرفها ويحبها، ونحن نعلم أن خطته(*) هى أن يبنى جامعا ضخما، ثم يعتنق الإسلام بعد ذلك . نحن يجب أن نحيطك علمًا أن جزار باشا(**) أطلق عليه الشعب الذى اضطهده اسم جزار . خطط لكى يغزو مصر . جمع من العثمانيين الذين كان جندهم فى عكا، يركزون أنظارهم على أقاليم سوريا ومصر الجميلة، على أمل أن يقوموا بنهب ممتلكاتها . هو استولى فعلا على العريش . القائد العام بوناپارت خرج إليه، هزم جنوده فى العريش، وأسر أكثر من ثلاثة آلاف منهم قبل أن يتقدم إلى غزة

(*) كلمة ملغية من الأصل .
(**) كلمتان ملغيتان من الأصل .

ويستولى على هذه المدينة. المسلمون الصادقون أسرعوا لمقابلته، هو (. . . . .)(*) جميعهم، واستولى على الحصن، وهزم ثانية رجال الجزار، الذين كانوا يفرون أمامه كالطيور وكالفئران يطاردهم القط. بعد وصوله إلى رمله، استولى على ٢٠٠ قربة ماء ومؤن من البسكويت كان يعدها الجزار لزحفه إلى مصر. من هناك، ـ منتصراً دائما ـ وصل بوناپارت إلى يافا، واستولى على المدينة بعد يومين من القتال وأخذ ٥٠٠٠ أسير، مع كمية ضخمة من المؤن المخزونة؛ لأن المدينة كان سلوكها سيئا، أباح نهبها، بعد أن قتل جميع الجنود. الناس من مصر هم فقط الذين أنقذوا وأرسلوا إلى ديارهم على ظهر مائتى قارب محملة بالمؤن؛ لأن المصريين هم أبناؤه.

من هناك، قام بوناپارت بمطاردة رجال الجزار، حيث كان معهم النابلسيون، هزمهم وقتل عددا كبيرا منهم. عند وصوله إلى عكا، دمر حوائط قصر الجزار وحوائط المدينة كلها. من خلال عدة معارك[٧٥]، قهر جميع أعدائه الذين أرادوا معارضة خططه، إذ إنه كان مثل سيف الله. بعد ذلك، قرر أن جماهير مصر تطلب حضوره بعد غياب أربعة أشهر، وأن بعض الأشرار كانوا يحاولون جر الدولة إلى العصيان، وأن العرب كانوا يقومون بأعمال النهب وأن المماليك يحرقون. خرج إلى مصر ووصل إليها، وأخمد جميع العواصف، وبعودته تغير حال شعب مصر.

(هذا المستخرج المؤرخ «پريريال السنة السابعة» بتقويم الثورة. كتب بيد السيد چومارد.).

هكذا كانت أهمية هذه الوثيقة[٧٦] التى تشعر بالتزامنا أن نتبعها بالرسائل والمذكرات التالية، والتى استمدت مثلها من سجلات إدارة الحرب، هذه الوثائق والمذكرات بالتأكيد تسجل ذروة العلاقات الفرنسية / الإسلامية.

(*) كلمة مفقودة.

الوثيقة (٢٥)

خطاب أرسله السيد چومارد، ١٨٥٦/٨/٣٠

* وزارة الحرب.
* سجلات تاريخية.
* مقر هيئة الجيش.

عزيزى الچنرال

أنا لا أستطيع أن أرفض المطلب الذى أرسلته إلى. البلاغ المستنبط تم إعداده، بقدر المستطاع، فى غياب البلاغ الأصلى الذى فقد فى قصر الإليزيه. هذه وثيقة افتقدها كثيرا: بتقديمى هذا السجل الأصلى الثمين إلى رئيس الدولة، كنت أعتقد أنه سيكون أكثر أمنا هناك عن وجوده معى. أظن أنك قد أحطت علما بالموضوع.

سيدى الچنرال؛ منذ أربع أو خمس سنوات مضت أخذت مبادرة تقديمه، مع الاحترام، إلى الأمير الذى رحب به باهتمام. طلبته منذ ذاك الحين تكرارا من أمين المكتبة ومن السيد موكارت؛ لكى ألقى عليه نظرة؛ لم يهتم أحد بمطالباتى، ولم أتخذ أنا أى خطوات أخرى.

أنا أعتقد أن النسخة الجديدة التى أرسلها إليك هى - سطر بسطر - كل ما يمكن استنباطه من قراءة الأصل.

أرفقت لك بعض كلمات قليلة تشرح الأصل.

تأكد ياعزيزى الچنرال، أننى شديد الأسف؛ لأننى أشعر أن وضعك لم يتحسن.

حاشية: دون شك مازال **چومارد** يوجد ضابط قديم ممن شاركوا فى الحملة المصرية، يستطيع أن يوضح للجنة حقائق هذه الحملات.

إلى الچنرال أوپيك .

ملاحظة للسيد چومارد[٧٧] عن البلاغ الذى أصدره ديوان مصر عند عودة الحملة السورية . (سيرة ذاتية للچنرال بوناپارت) .

* وزارة الحرب .

* سجلات تاريخية .

* مقر هيئة الجيش .

عند عودته من الحملة السورية ، شعر القائد العام بوناپارت بالحاجة إلى إنعاش الثقة لدى سكان القاهرة . الجيش الفرنسى دخل من «بوابة النصر» . الجنود كانوا يحملون سعف النخيل رمزا للنصر ؛ جميع من لهم أية منزلة فى المدينة أظهروا أنفسهم أمام قوات الجيش . مسيرة القوات ، والمناورات المتنوعة ، والموسيقى العسكرية ، والجموع الحاشدة ، جميعها معا جعلته يوم احتفال بالنصر . لكى يصل إلى عقول الناس ، قرر القائد العام أن يقوم الديوان بإصدار بلاغ إلى سكان مصر ، وأعطاهم أفكاره لإعداد هذا البلاغ ، وعندما رأى أن ما فعلوه لم يكن ملائما ، بدأ هو يمليه عليهم . هذا ما يراه الإنسان من قراءة السطر الأول من هذا المستخرج ، بعد كلمات «التحية لكم» .

«يجب علينا أن نحيطكم علما أن . . . » (هكذا يقرأ السطر الأول . بعد ذلك ، أضاف هو ، بخط يده ، ثلاثة سطور قبل الفقرة الأخيرة .) يبدو أن من كان يكتب ما يمليه لم يكن سريعا بالقدر الكافى لملاحقة كلماته[٧٨] . قلم يمر على بداية سطرين يشير إلى أن الچنرال بوناپارت فقد صبره .

أخيرا أمسك هو بالقلم واستمر يكتب صفحتين كاملتين ، الأسلوب يتحرك سريعا ، مثل الكتابة نفسها ، ويمكن للإنسان أن يرى قوة البلاغة الحربية تبرق خلال السطور . هذه الوثيقة غير مقروءة تقريبا لأى إنسان لايعرف خط يد المؤلف ، ولايعرف خاصة تاريخ الحملة السورية .

هذه النسخة راجعها ووافق عليها السيد دى مينيڤال، وكذلك السادة تشاپيوس ولوداك، ولاتران، وأميدييه، وجميعهم يعرفون خط يد الچنرال بوناپارت، وهؤلاء السادة أعلنوا أن الكلمات الباقية التى لم تنسخ هى كلمات لايمكن قراءتها.

چومارد.

الوثيقة (٢٦)

ثلاث ملاحظات تكميلية(٧٩)

* وزارة الحرب.
* سجلات تاريخية.
* مقر هيئة الجيش.

(الأولى)

ملاحظة عن تاريخ إعداد هذه المسودة، وتاريخ إصدار البلاغ.

كل شيء يدل على أن هذه المسودة الخطية كتبت فى القاهرة أثناء يوم ٢٦ پريريال أو فى ليلة ٢٦ ـ ٢٧ پريريال.

بالنسبة للبلاغ، كان يجب إعداده ونشره بحلول يوم ٢٧ پريريال على أكثر تقدير؛ ولكن بالتأكيد ليس يوم ٢٦، بمعنى، اليوم الذى دخل فيه القائد العام، طبقا لكلمات نص البلاغ التى تقول «دخل القاهرة من بوابة النصر يوم الأربعاء الموافق يوم ١٠ من شهر محرم . . . الخ» والذى يوافق يوم ٢٦ پريريال أو ١٤ يونيو.

ملاحظة خطية:

انظر هذه المسودة التى أرسلت إلى السيد چومارد، فقدت ولم تعد إلى السجلات المحفوظة، ولكن من الممكن أن يجدها الإنسان مطبوعة. انظر الملاحظة المرفقة.

(الثانية)

١٤ يونيو، ١٧٩٩ .

القاهرة[٨٠] **بوناپارت**

مسودة البلاغ الذى أصدره ديوان القاهرة، مكتوبة بخط يد بوناپارت، فى يوم دخول الجيش إلى القاهرة (٢٦ پريريال) .

مسحوبة من مجموعة السيد چوبارد .

أعمال ناپوليون الكاملة (ستوجَّارد) .

T . 3 . P 166 . P . OFF . T . I, P . 256

(الثالثة)

لم يقم الچنرال بوناپارت فقط بإملاء الرسائل والبلاغات التى كان يقوم هو بتوقيعها، بل كان أحيانا يملى رسائل وبلاغات يوقعها الآخرون .

عند عودته من الحملة السورية، التى لم تكن نتائجها مرضية تماما، أراد بوناپارت، رغم ذلك، من ديوان القاهرة أن يثير فى جماهير الأقاليم المصرية نفس السعادة التى شعر هو بها عند عودته إلى مصر .

لذلك كتب بنفسه إلى سكان القاهرة مسودة بلاغ المرفقة، وهى النسخة التى طورت إلى نص النسخة الأصلية المفقودة .

طلب من الچنرال أوپيك أن يقرأ الملاحظة المطبوعة على الهامش : توجد فقرات لايستطيع أحد أن يقرأها ، ولكن إذا قام السيد فوسجيلين نيابة عنكم بمقابلة السيد چومارد الذى يقيم فى پاريس حتى الآن، ربما يستطيعان حل رموز الفقرات المفقودة أو استكمال هذه الوثيقة المهمة .

فعلا كما شاهدنا إنشاء التحالف بين إسلام متخلف وبين فرنسا متحررة، معنويا منذ البداية، وكان يمكن توقيعه رسميا . . . عقبة واحدة بين عقبات

أخرى، أثبتت عدم إمكان تجاوزها؛ معارضته تركيا المتهورة التعيسة، التى ازدرت نوائب المستقبل.

وهكذا فشل «أعظم مشروع كان يمكن للإنسانية أن تنجزه».

الوثيقة (٢٧)

رقم ٤,٣٦٤ - إلى الوزير العظيم

مقر القائد، القاهرة، ١٧/٨/١٧٩٩

إلى وزير تركيا العظيم الكبير بين كبار المتنورين وموضع ثقة أعظم السلاطين.

يشرفنى أن أكتب إلى سعادتكم من خلال الأفندى الذى أخذ أسيرا فى «أبوقير» والذى أعيده إليكم ليحيطكم علما بحقيقة الوضع فى مصر، ويدخل فى مفاوضات بين الباب العالى وبين جمهورية فرنسا، لوضع نهاية للحرب المستمرة بيننا والتى تسىء إلى كل من دولتينا.

الباب العالى وفرنسا كانا صديقين لزمن طويل صداقة تقليدية، صديقين خلال ترامى حدوديهما، ومن خلال شراكتيهما لعدو مشترك فى روسيا وفى إمبراطور ألمانيا. أى سوء حظ مميت هذا الذى جعلهما، رغم ذلك، تحاربان بعضهما؟

كيف يمكن لسعادتكم ألا تشعر بأنه لا يوجد رجل فرنسى مات دون أن يكون سنداً للباب العالى؟

كيف يمكن لسعادتكم، وأنتم المستنيرون العارفون بسياسات ومصالح مختلف الدول، ألا تدركوا أن روسيا وإمبراطور ألمانيا اتفقا فى مناسبات عديدة على تقسيم تركيا، وأن تدخل فرنسا، هو فقط الذى منع حدوث ذلك؟

سعادتكم بالتأكيد تعرفون أن العدو الحقيقى للدين الإسلامى هو روسيا. الإمبراطور پول الأول أعلن نفسه السيد الأعلى على مالطة، أى أنه عقد العزم على محاربة المسلمين.

ألم يكن هو رأس الدين الإغـريقى الذى احـتـضن أكبـر عـدد من أعـداء الدين الإسلامى؟ .

زود وزيرك فى پاريس بسلطات مطلقة، أو أرسل رجـلا آخر إلى مـصر مـزوداً بسلطات مطلقة ومعرفة تامة بأهدافكم . كل شيء يمكن تنظيمه خلال ساعتين من المشاورات . إنها الفرصة الوحيدة لإحياء إمبراطورية المسلمين، وإعطائها القوة ضد أعدائها الحقيقيين، وإحباط خطتهم الغادرة التى لسوء الحظ، نجحت فعلا بالنسبة لهم .

إدارة الحرب[٨١] بوناپارت

هذه الرسالة كانت مؤرخة ١٧/ ٨/ ١٧٩٩ ؛ بعد خمسة أيام لاحقة، يوم ٢٢ أغسطس، قام بوناپارت بتعيين الچنرال كليبر قائدا عاما للجيش[٨٢] .

أكد لديوان القاهرة أنه سوف يعود سريعا[٨٣] .

أهملته تركيا، وأحس هو باستحالة قبولها لاقتراحه، ورأى من الناحية الأخرى أن الإدارة التنفيذية تحتفظ برسائل مهمة، علاوة على ذلك انزعج بهزائم چوردا فى ألمانيا وشيرار فى إيطاليا، لذلك قرر بوناپارت أن يغادر مصر[٨٤] .

٥ـ الخلاصة ـ (نتائج نظرية).

(عروض ضمنية ـ عرض واضح لإحياء الإسلام) .

تاريخيا، تقارب الشرق والغرب، بأسلوب حاسم غير متوقع، شكراً للحملة الفرنسية .

مـعنويًا، أولئك الذين، على الأقل، نسـوا ـ المسلمين ـ بدأوا يرون ، بالنسبـة لقضيتهم، أرضية لتقدم لانهائى تجاه فكرة الحضارة العلمية .

نظريا، يبدو أن هذا كان ـ على الأقل من متابعة النصوص السابقة ـ رأى بوناپارت عن الدين الإسلامى . . . . مع بعض التحفظ، سوف نوجز إطار الاقتراحات كما يلى :

١ـ أقل قدر مما وراء الطبيعة، مع أعلى قدر من البعد الاجتماعي.

المفهوم الجمهورى عن «الموجود الأعلى» يكفى. ولكن العبادة يجب أن تنظم طبقا لطبائع الشعوب المختلفة، وهو ما يبيحه ـ بكل سعة ـ الدين الإسلامى.

٢ـ الضغط السياسى على القادة الدينيين.

بقدر ما رفضه بحسم[٨٦] دين يواجه رجل الدولة بقوة مساوية، إن لم تكن أعلى من قوته ـ وبهذا لايمكن احتواؤها ـ بقدر ما كان بوناپارت مشدودا غريزيا إلى دين من قادة اجتماعيين تحكمهم عقولهم. **هكذا رأى بوناپارت أن فى الدين الإسلامى صلاحًا للناس، ومبادئ تسمح بإجراء إحياء منظم للشرق، وأيضا لتنظيم حكومة عالمية[٨٧]. بالنسبة له الدين الإسلامى كان هو الحق المطلق: كان حقا يُمارس، لكن أى نوع آخر يمكن أن يوجد؟**

٣ـ استمرارية الدين.

«إذا كان هناك دين وجد منذ بدء العالم»، قال ناپوليون فى أحد الأيام، «أنا أعتقد أنه هو الدين الحق»[٨٨]. بوناپارت كان يعرف أن محمدا نسب نفسه إلى جميع الأنبياء السابقين، حتى أولئك الذين خفيت الآن أسماؤهم على الناس. هو قرأ ذلك فى القرآن[٨٩]، وهذا المفهوم كيف نفسه تماما مع آرائه ـ هو ـ التى تميل دائما نحو العولمة. بوناپارت نسى الفيدا والديانات الهندية...[٩٠].

٤ـ احتمال الإحياء العلمى للدين الإسلامى.

ـ دائم الاستشهاد بالماضى، كان بوناپارت يدور حول أعظم الأمجاد ـ كان يعرف أن القرآن ـ أساسا ـ ليس فقط أكثر تحررا من العقيدة الكاثوليكية،[٩١]، بل أيضا إن التاريخ سجل إسلاما علميا لايقارن، يمكن إحياؤه، ومتوقعا ومقدرا. بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة، خاصة، كان شيوخ المصريين شديدى الحرص على ألا يهملوا التوجيه الدينى لإنسان مثل بوناپارت.[٩٢]

٥ـ مستقبل فكرة العدالة.

أخيرا، بوناپارت أدرك، أفضل من أى إنسان آخر، الاتجاه الذى يسير العالم إليه؛ شعر نظريا أن وجود قوة روحية، وبقاءها دائما، هو أمر ضرورى للإنسان، وأن المصلحة الاجتماعية تتطلب ذلك، وأنه بتعبيرات عملية ـ سواء أحبها المرء أو كرهها ـ بالتفوق المنطقى لروح العدالة(٩٣) التى تخلق النظام على فكرة التصدق الحر التى تعدم النظام، وبالرغم من جميع الظواهر، فإن الهلال سوف يخلف الصليب.

لذلك هو كان يريد من أجل أمجاد ومكاسب متبادلة لفرنسا، ولدين مثالى ولنفسه، أن يقود قطارا يتوقع له النجاح.

لأنه تعود أن يرى نتاج جهود الحياة ومحنها فى حكم الأجيال اللاحقة، ترك بوناپارت مصر وهو يشعر بأسف شديد(٩٤)، ألم يكن من الممكن القول بثقة أن جميع هذه الأفكار كانت تختمر بداخله، وأنه كان يريد أن يقوم الإسلام ـ رغم كل شىء ـ بإنجازها من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر.

هذه فى رأينا هى النظرية الضمنية البالغة الوضوح فى عدة نقاط للقائد العام، الصغير السن، لجمهورية فرنسا أثناء فترة الحملة المصرية.

بالنسبة للحكم الذى كونه بوناپارت عن شخصية الرسول محمد ﷺ، لا يوجد أى احتمال لأى ريب حوله. تماما كما أظهر بوضوح تعاطفا صادقا تجاه الشعب المصرى، ولم يخفه. هو أيضا لم يستطيع إلا أن يشعر بنوع من الولاء الرومانى للنبى محمد ﷺ، وللجنود الذين آمنوا به. أى رجل يعرف أفضل من الرسول محمد ﷺ، كيف يجمع بين قوتين مستقلتين عزيزتين على بوناپارت: الإقناع، والقوة(٩٥).

من يعرف أفضل من الرسول محمد ﷺ كيف يبنى كيانا اجتماعيا صادقا؟ من أفضل من الرسول محمد ﷺ، كان محاربا، وغازيا، ومشرعا عظيما؟ من، مرة

تلو أخرى، ركز أعمق اهتمام على الماضى السحيق و المستقبل البعيد؟ بالتأكيد ما أكثر أفعال، وأقوال بوناپارت، التى جعلتنا نعرف أنه يعتقد أن محمدا كان أكثر الأنبياء قدسية. فى الفكر العربى هو كان أكثر الأنبياء فاعلية؛ لأنه كان أقدسهم؛ بالنسبة لبوناپارت، هو كان أقدسهم؛ لأنه كان أكثرهم تأثيرا منطقيا.

فى رأينا، أن بوناپارت بذلك عبر منطقيا عن إعجابه بشخصية الرسول محمد ﷺ.

تعاطفه مع المسلمين كان صادقا، جاء من العقل ومن القلب معا، وهو أراد أن يؤكد ذلك لهم. انجذابه نحو الإسلام نفسه مستمد من الغريزة، طوره التفكير والتأمل، أية وطنية وطموح - أكثر روعة من أى شىء آخر - من هذين اللذين نقلهما التاريخ إلينا.

مع ذلك دعنا نتحدث بصراحة كل هذا الذى نحاول تحليله، برز إلى بوناپارت فى تكوين واسع دقيق لايتجزأ. [٩٦]

على أية حال، وأيا كانت الانطباعات لدى الإنسان عن موقف بوناپارت تجاه الإسلام، هذه المعضلة ظلت باقية: هل كان الدافع لدى بوناپارت هو ولاؤه كرجل سياسة[٩٧] وتصرف طبقا لذلك؟ أو كان سياسة بحتة، أجازتها الإدارة عندما لُقِّنت وتصرف هو تبعا لذلك.

على كل حال، كلمة الدولة كانت ملزمة. لم تكن مسئولية بوناپارت - على الأقل فى لحظة محددة - [٩٨] أن يقوم بإنجاز تحالف قوى وإيجابى بين فرنسا والإسلام.

ومع أنه لم يبرم تحالفًا فوريًا، فقد دعا إلى إقامة هذا التحالف فى المستقبل، وسلم للسياسيين والوطنيين المخلصين العقلاء اقتراحًا موجزًا ولكنه واضح - لإحياء الإسلام[٩٩].

٦ـ اقتراح واضح لإحياء الإسلام بالعلوم.

الوثيقة التالية، التى أشرنا إليها فى مناسبات كثيرة، تحوى فى الحقيقة مشروعا كاملا لإصلاح الإسلام، وهذا العنوان يلزمنا جزئيا أن نتناولها بالكامل.

نحن لا نملك المؤهلات اللازمة لمناقشتها، ولكننا نصر على حقيقة أن بونابارت أعد مسودة هذه الوثيقة فى الوقت الذى بدأ فيه يفقد الأمل فى الوصول إلى اتفاق مع تركيا، على أرضية إسلامية بحتة.

التفكير الظاهر هو: مركز علمى يعرض فيه حقيقة الإسلام؛ ومركز آخر دينى يحافظ على منزلته ـ مكانه التقليدى مكة ـ التى تتواصل باستمرار مع الماضى، وتنشر بين الحجاج الذين يأتون من جميع بقاع الأرض، الحقائق السرمدية التى وصلت إليها. بهذا الأسلوب ـ وبفضل توحيد القوى ـ تتكون من وحدة فعالة للمؤمنين تتطابق مع وصايا القرآن (١٠٠).

الوثيقة (٢٨)

رقم ٤,٢٣٨ ـ أمر

مقر القائد ـ القاهرة، ١٧٩٩/٦/٣٠

حكام جميع الأقاليم يجب أن يخبروا الدواوين المختلفة أن مجلس العلماء عين الشيخ العريشى قاضيا. القائد العام يريد أن يقوم كبير القضاة، كما هى العادة، بالتصديق على مناصب جميع القضاة؛ لذلك يجب على جميع قضاة الأقاليم أن يتوجهوا إلى القاهرة للحصول على تصديق كبير القضاة.

حكام الأقاليم فى جميع الأحوال يجب أن يحيطوا قادة الدولة علما أن الوقت قد حان أخيرا لكى تتوقف الحكومة العثمانية، التى كانت أكثر طغيانا عليهم من حكومة المماليك نفسها، وأنه يتعارض مع روح القرآن أن يأتى العثمانيون من القسطنطينية لإدارة العدالة لقوم لا يفهمون لغتهم، لقد مرت ثلاثة أو أربعة قرون بعد وفاة الرسول ﷺ محمد قبل أن تدخل القسطنطينية إلى دين الإسلام؛ وأنه إذا

عاد الرسول محمد ﷺ إلى الأرض فلن تكون القسطنطينية مقرا لإقامته، بل ستكون مدينة القاهرة المقدسة على ضفاف نهر النيل؛ وأن رئيس دين الإسلام هو صديقنا شريف مكة، تماما كما أن المعرفة الصادقة بالدين توجد فى مجلس العلماء بالقاهرة، الأكثر معرفة بالدين فى جميع أنحاء إمبراطورية الإسلام دون منازع؛ وأن القائد العام يريد أن يكون جميع القضاة من المواطنين المصريين، باستثناء من جاءوا من مكة والمدينة.

إدارة الحرب[١٠١] بوناپارت

مذكرة عن الإدارة المحلية.

بوناپارت خسر مؤقتا المعركة القائمة، ليست ضد الإسلام، بل لصالحه. بقى عليه أن يستعد للمستقبل، وفوق كل شىء، أن ينير العقول الأوروبية بعرض شديد الوضوح للحقائق. كان هذا هو هدف التعليمات التالية التى أصدرها وهو يسلم القيادة العامة للچنرال كليبر (٢٢/ ٨/ ١٧٩٩)؛ هذه التعليمات تحمل عبارة: مقر القائد، الإسكندرية، فروكتيدور[١٠٢] مع ذلك يجب تفسير هذه العبارة: أنها تعنى بالقرب من الإسكندرية؛ لأن جميع المعلومات التى تتعلق بالموضوع تتفق على أن بوناپارت لم يرغب فى الدخول إلى المدينة[١٠٣].

الوثيقة (٢٩)[١٠٤]

مذكرة عن الإدارة المحلية

العربى هو عدو الأتراك والمماليك. المماليك حكموه بالقوة، وقوتهم كانت بالكامل حربية. اللغة التركية هى لغة أجنبية لمواطنى الدولة، تماما مثل اللغة الفرنسية. العرب يعتقدون أنهم أعلى منزلة من العثمانيين. العلماء وكبار الشيوخ هم قادة الأمة العربية، يتمتعون بثقة وإعجاب جميع سكان مصر. هذا هو ما جعل الأتراك والمماليك يغارون منهم فى جميع الأوقات، ويبعدونهم عن إدارة الشئون العامة. أنا لم أشعر أبدا بأى رغبة لمحاكاة تلك السياسة. من المستحيل علينا أن

نتطلع إلى نفوذ مباشر على جماهير نحن بالنسبة لهم أجانب، لكى نقودهم، نحن نحتاج إلى وسطاء؛ يجب أن نعطيهم قادة، وإن لم نفعل، سوف يختارون هم قادتهم. أنا فضلت العلماء وأساتذة القانون.

أولا - لأنهم القادة الطبيعيون.

ثانيا - لأنهم مفسرو القرآن، ولأن أعظم العقبات التى واجهناها وسوف نواجهها، تنبع من الأفكار الدينية.

ثالثا - لأن العلماء لديهم عادات حضارية، ويحبون العدالة، وهم أغنياء، تحركهم مبادئ أخلاقية طيبة، هم بدون نزاع أكثر الناس أمانة فى الدولة. هم لايعرفون ركوب الخيل، وليست لديهم تجارب فى المناورات الحربية، وغير مؤهلين لقيادة حركة مسلحة. لقد أعجبتهم إدارتى، استخدمتهم فى حديثى مع الشعب، كونت دواوين العدالة، هم كانوا القناة التى قمت من خلالها بحكم الدولة. لقد أضفت إلى ثرواتهم، و أعطيتهم فى جميع المناسبات أعظم فروض الاحترام، ومنحتهم أعلى الأوسمة الحربية؛ بإرضاء كبريائهم، وأرضيت كبرياء الشعب كله، ولكن سوف يكون عبثا أن نعطيهم كل هذه الاهتمامات إذا لم يكونوا مشربين بأعمق احترام للدين الإسلامى. لقد أردت أن أجعلهم أكثر طاعة، وأكثر احتراما للأشياء وللشخصيات التى تتعلق بالإسلام، عما كانوا عليه فى الماضى.

«الباب العالى كان يحتكر تعيين جميع القضاة. لقد عانيت من مشاكل كثيرة لكى أقوم بتغيير هذه العادة، وأعيد للعلماء هذا الاختصاص الذى فقدوه. من المهم الحفاظ على مافعلته».

القاهرة هى المفتاح الثانى للكعبة المكرمة؛ مكة هى مركز دين الرسول محمد ﷺ. سياسة سلاطين القسطنطينية كانت تهدف إلى تجريد شريف مكة من صلاحياته، وأن تحدد أو تلغى علاقات العلماء مع مكة.

مصالحى، بطبيعة الحال، قادتنى إلى اتجاه عكسى، قمت بإحياء العادات

القديمة، أكدت علاقات الصداقة مع شريف مكة، وفعلت كل شيء ممكن لمضاعفة وتعزيز العلاقات مع المدينة المقدسة.

يجب على الإنسان أن يولى أعظم اهتمام لإقناع المسلمين أنه يحب القرآن ويبجل الرسول محمداً ﷺ. كلمة زائفة، أو مناورة واحدة سيئة التخطيط، قد تدمر العمل الذى تم عبر سنوات عديدة. **أنا لم أسمح أبدا للإدارة أن تقوم بعمل مباشر تجاه العاملين بالجوامع أو تجاه الشئون الدنيوية للجوامع، كنت أحيلها دائما إلى العلماء وأترك لهم حرية معالجتها**. فى أى موضوع مثير للنزاع، يجب على السلطة الفرنسية أن تقف دائما إلى جانب الجوامع والمؤسسات الدينية. من الأفضل لنا أن نفقد بعض الحقوق، لكى نتجنب الإساءة إلى الإدارة تجاه هذه الأمور الحساسة. هذه الطريقة كانت أكثر فاعلية من أى شيء آخر، وهى التى أسهمت فى شعبية حكومتى. ضريبة الملايين الستة التى فرضتها على المدينة عند وصولى أثارت احتجاجات ضئيلة، وسددت بسهولة؛ لأننى قمت فقط باستخدام الشيوخ فى تقديرها وجمعها، ونظر السكان بارتياح لعدم وجود أى إهانات أو أعمال استبدادية مثل تلك التى أخزت إدارة الأتراك أو المماليك.

الأقباط يسيطرون على الأموال وعلى جمع الضرائب؛ من الضرورى الإبقاء عليهم فى موقعهم، والحرص على عدم تدخل الأتراك فى هذا المجال المهم من الإدارة، والذى يجب نقله فى الوقت المناسب إلى أياد أوروبية. المماليك ليس لهم وجود الآن كقوة، هم مفيدون كجهاز ميلشيا مساعد؛ إنهم ولدوا أعداء للعرب وللشيوخ، و يمكنهم أن يقدموا خدمات فى مناسبات كثيرة. يمكن للإنسان أن يكتسب مراد بك وإبراهيم بك بإعطائهما لقب أمير، وأن يكتسب البكوات الآخرين بإعطائهم رتبة چنرال، وإعادة ممتلكاتهم إليهم. من الضرورى مع ذلك الحرص على ألا يمتلك البكوات مجتمعين أكثر من ٩٠٠ أو ١٠٠٠ فارس. سوف نستخدمهم لاحتواء عرب الصحراء جميعا بستة أفواج من الهجانة، نشكلها لهذا الغرض. سوف نستولى على جميع الآبار فى الصحارى الست، لكى نستطيع ممارسة السيطرة المباشرة على جميع هذه القبائل البدوية.

من الضرورى ألا نغفل عن حقيقة أن الإسكندرية يجب أن تكون يوما ما هى عاصمة الدولة. يجب علينا ـ لذلك ـ أن ندعم فرع النيل على جانب رشيد بدلا من فرع دمياط، وأن نجعل حجما كبيرا من الماء يتدفق فى إقليم البحيرة، حتى إن سبب ذلك ضررا للشرقية؛ وأن نعيد بناء القناة من الرحمانية إلى الإسكندرية؛ وأخيرا نعزز ميناء الإسكندرية ونجعله المخرج الوحيد للتجارة مع أوروبا، وأن نعيد جميع المواصلات السابقة بين شمال مصر، والفيوم والبحيرة. الحصون الدائمة، والمحلات التجارية، والمستشفيات، والترسانات، ومطاحن الهواء، والمصانع يجب تفضيل بنائها فى الإسكندرية، حيث يجب استخدام جميع وسائل الإغراء لنجذب إليها أعدادا كبيرة من اليونانيين، واليهود والمسيحيين من سوريا.

يجب علينا أن ندعم السويس، على حساب القصير، ونجعلها مستودعا رئيسيا لواردات البن والتوابل، ولتصدير سلع أوروبا ومصر السفلى. تجارة القصير يجب أن تقتصر على السلع من مصر العليا.

الدولة يجب أن تتعود تدريجيا على فكرة التجنيد الإجبارى للجيش والأسطول. ما له أهمية خاصة هو أن نجمع كل سنة بضعة آلاف من السود، من سنار ودارفور، ونضمهم إلى القوات الفرنسية بنسبة ٢٠ رجلا لكل فوج. بسبب تعودهم على الصحراء، وحرارة خط الاستواء، سوف يصبحون، بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من التدريب والتجارب، جنودا صالحين ومخلصين.

يجب علينا أن نتكيف مع أساليب الشرق[١٠٥]، نترك القبعة والبنطلونات الضيقة، ونعطى ملابس قواتنا شيئا من النمط الشرقى. بمثل هذه الملابس سوف تبدو قواتنا للسكان وكأنها جيش وطنى، ونحافظ بهذا على عادات الدولة[١٠٦].

* * *

هوامش الجزء الأول

١ ـ جزء من هذا العمل ظهر فى المجلة الاجتماعية الدولية (إنترناشيونال سوسيولوچيكال ريڤيو) أكتوبر ١٩١٢ .

٢ ـ انظر أواخر الملحق رقم (١) .

٣ ـ بيليت دى لا لوزير .

٤ ـ حدد بوناپارت هدفه منذ البداية ؛ كان هذا بغرابة شديدة تأكيده المطرد لسياسته الإسلامية .

٥ ـ بالنسبة لتاريخ الرسول محمد ﷺ وتاريخ العرب ، لم يقم ناپوليون فقط بدراستها دراسة دقيقة ، بل إن كتاباته وهو شاب ، شملت موجزا مثيرا عن تاريخ العرب الذى كتبه الأب ماريجنى . انظر ماسون : ناپوليون كتابات لم تنشر ، ١٩٠٨ ، من صفحة ٣١٩ الخ .

٦ ـ رسائل ناپوليون الأول ، التى نشرت بأمر من ناپوليون الثالث ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٧ ـ ٢٨ ، رقم ٤٥٨ر٢ ، ٢٨ مارس ، ١٧٩٨ .

٧ ـ ملحق للبيان رقم ٧٠٨ر٢ ـ هذا البلاغ ، الذى كتب على ظهر السفينة أورينت يوم ٢٢ يونيو ، لم يصدر كأمر عسكرى إلا فى يوم ٢٨ يونيو ، ليلة يوم الهبوط إلى أرض الإسكندرية .

٨ ـ من بين رجال السياسة الإنجليز ، فوكس فقط هو الذى عبر عن إعجابه الشديد بناپوليون . مع مثل هذا الشعب ، نحن نقرأ فى مذكرات القديسة هيلين ، سوف يكون لدى إدراك دائم أنه كان يجب علينا أن نصل سريعا إلى اتفاق . لم يكن علينا فقط أن نحقق السلام مع أمة تستحق كل الإعجاب ، بل كان علينا أيضا أن نعمل معا عملا صالحا . فى الوقت الحاضر ، لن يكلفنا شيئا أن ندرك أن إنجلترا أصبحت أمة شقيقة

لفرنسا، تقوم بسياسة إسلامية بالغة الحكمة. تلك سياسة يمكن اعتبارها مثالية.

٩ - انظر الجزء الرابع، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

حتى إذا كان النص الفرنسى للوثيقة التالية قد ترك أى فراغ لأقل تردد بالنسبة للبلاغ الرسمى الذى أصدره القائد العام، فإن النص العربى ، الذى كتب بناء على أوامره، سوف يزيل أى شك. تقرر فيه - بالتأكيد - مبدأ التحالف الفرنسى الإسلامى.

١٠ - بالنسبة للتغييرات المادية فى النص العربى للبلاغ، لدينا دليل على ذلك، ليس فقط فى مراسلات الجيش الفرنسى فى مصر - كما ترجمها أسطول نيلسون، والتى طبعت فى لندن عام ١٧٩٩ - بل أيضا، النص العربى نفسه. هذا النص بدلا من أن يشير إلى بوناپارت على أنه عضو المجمع القومى، بدأ هكذا [**بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد]**.

بالنيابة عن الجمهورية الفرنسية التى أسست على مبادئ الحرية، نعلن إلى جميع سكان مصر أن البكوات، منذ زمن طويل . . . الخ انظر نقولا الترك، «تاريخ الحملة الفرنسية إلى مصر» كما ترجمها ديسجرإنچيز الكبير، سكرتير التفسير للملك فى پاريس والتى طبعت بإذن الملك فى المطابع الملكية عام ١٨٣٩ .

نحن مضطرون هنا أن نأخذ مراسلات بوناپارت كما طبعها ونشرها ناپوليون الثالث، ولكن دعنا نأخذ فى اعتبارنا تشويه وطمس نصوص الوثائق. انظر بون ليسيتر: رسائل لم تنشر لناپوليون الأول پاريس، ١٨٩٧ ، الجزء الأول، ملاحظة أولية.

١١ - البلاغ فى نصه العربى لم يذكر تعبير «المسلمين الحقيقيين» ولا حتى أصدقاء المسلمين الصادقين» بل إنه قال: أيها القضاة والشيوخ والأئمة وأشراف المدينة، قولوا لشعبكم: إن الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون.

يوجد هناك إقرار يشير إلى إسلامهم ودعوة إلى قلوب وعقول وإخلاص السكان، انظر نص نقولا الترك، وترجمة ديسجر إنچيز: الفرنسيون هم أيضا مسلمون حقيقيون، ولكن مسلمون صادقون، ترجمة أفضل.

١٢ - من المعروف كيف سارت هذه الأحداث: مؤسسو الجمهورية الجديدة أسرعوا بإرسال ثمانية منهم إلى الچنرال الفرنسى بيرثيير يخبرونه أن روما قد حررت نفسها، وهى تحتاج إلى حضوره فقط لكى تصدق رسميا على حريتها، بيرثيير الذى كان يتوقع هذا التطور، قرر لذلك أن يدخل رسميا إلى هذه المدينة التى كانت مقرا للقياصرة وورثة القديس (بطرس). سار بصحبة عدد من قادة الأركان ومجموعات

من قوات الفرسان والرماة. بعد أن سار عبر المدينة وسط حشد كبير من الجماهير، شدهم هذا المشهد المتفرد أكثر من حبهم للحرية. صعد الچنرال الفرنسى إلى الكاپيتول (هيكل روما القديم) وباسم شعب فرنسا، أقدم التحية للجمهورية الرومانية الجديدة، أعلن أن هذه الجمهورية التى تعترف فرنسا بحريتها واستقلالها سوف تشمل جميع الأراضى التى منحت إلى البابا بموجب معاهدة تولينتينو. ثم دار حول ساحة الكاپيتول وسط هتافات مدوية «تعيش الحرية تعيش الجمهورية الفرنسية والجمهورية الرومانية، والچنرالان بوناپارت وبيرثيير والجيش الفرنسى الذى لايقهر»

فى اليوم التالى، قامت جميع كنائس روما بتقديم الشكر للموجود الأعلى، الأربعة عشر كاردينالاً الذين وقعوا على مرسوم الحرية والتنازل الرسمى عن جميع حقوقهم السياسية، رتلوا الأناشيد فى كنيسة القديس پيتر. هؤلاء الكرادلة لم يشاركوا فى عدوان يوم ٢٨ ديسمبر، ورغبتهم فى إنهاء أيام وجوذهم فى روما، جعلتهم يتخذون قرارا يدل على الأنانية أكثر مما يدل على الشجاعة.

بينما قام الشعب الذى سحره هذا التجديد بدق نواقيس القلعة إعلانا بشكرهم للفرنسيين. بقى البابا پيوس السادس معزولا فى قصره، هجره معظم رجال الكنيسة البارزين ونبلاء روما، وظل يجهل ما يحدث من حركة العصيان المسلح رغم أنه كان يعرف خطواتها الأولى، الچنرال الفرنسى سيرفونى ذهب إلى قداسته وحذره من أن الشعب ألغى الحكومة البابوية ومارس استقلاله. هذا الرجل المسن الجليل، رفع بصره إلى السماء وقدم ما كان بالنسبة له تضحية متواضعة لسيد كل شىء وتلقى أخبار سقوطه المؤقت بهدوء وتماسك روحى أكثر مما يتوقعه أى إنسان من رجل مسن يعانى من أمراض عديدة، مستسلما للوسائل الغامضة للقدرة الإلهية. طلب من الچنرال بيرثيير وحصل على إذن منه أن يتقاعد فى توسكانى. فى يوم ٢٠ فبراير قام پيوس السادس بترك المقر الذى قام منه أسلافه بقوتهم الروحية بهز عروش أكثر ملوك أوروپا قوة. لجأ إلى صومعة مظلمة بملجأ پيز (انتصارات غزوات كوارث نكسات وحروب بين الفرنسيين من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥، المجتمع الحربى پاريس ١٨١٨ الجزء الثامن ص ٢١٨ - ١٢٢).

١٣ - انظر الجزء الرابع ص ٢١٥ وما بعدها.

١٤ - هذه الرساله تستحق اهتماما خاصا لطبيعتها الرسمية بسبب توجيهها وسريتها بسبب من أرسلت إليه.

١٥ ـ الجزء الرابع ص ٤٢٠ .

١٦ ـ الجزء الرابع ص ٢١٥ وما بعدها .

١٧ ـ بعيدا عن صراع أعمال القائد العام مع آرائه الفلسفية المعروفة ، هى لا تفعل أكثر من تفعيل ممارستها ، هذه الوثيقة مرسلة إلى كليبر (وثيقة قد تبدو أنها سياسية بحتة) شملت رغم ذلك تقديرا فريدا لتطور الأزمنة وللتعديلات التى يتطلبها هذا التطور ، لا شىء يمكن أن يكون أكثر صراحة ووضوحا (وولاء بالنسبة للإسلام بقدر ما هو لفرنسا نفسها) عن هذه الرسالة إلى كليبر .

١٨ ـ تواريخ من تقويم الثورة .

١٩ ـ الجزء الرابع ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

٢٠ ـ عندما قام سافاس باشا أثناء دراسته لنظرية الشريعة الإسلامية ، باستخدام تعبير : أسلمة الحقائق ، فعل هذا لكى يجعلنا نتفهم ما يعنيه .

انظر الجزء الرابع .

٢١ ـ سوف نقوم بعد وقت قليل بتطوير هذه النظرية باعتبار أنها قديمة ، كما أنها تقليدية ، وباعتبار أنها تقليدية كما أسىء بناؤها فى الملاحظة .

٢٢ ـ انظر رقم ٨٥٠ر٢ مقر ـ القائد ـ القاهرة ٢٧/ ٧/ ١٧٩٨ الجزء الرابع ص٢٦١

٢٣ ـ الچنرال زاچونشيك يحكم إقليم منوف .

٢٤ ـ دراسة الناس الذين تعيش بينهم واختيار من هم أكثر صلاحية للقيام بالعمل ، بعض الأوقات اضرب لهم أمثالا عادلة وصارمة ولكن لا تفعل أبدا أى شىء يقترب إلى النزوة أو الطيش .

انظر رقم ٠٣٠ر٣ ، ١٦/ ٨/ ١٧٩٨ الجزء الرابع ص ٣٤٨ .

٢٥ ـ انظر رقم ٠٨٤ر٣ ، الجزء الرابع ص ٣٨٦ر٣٨٧ ، ٢٢/ ٨/ ١٧٩٨ .

٢٦ ـ القاهرة ٢٣/ ٨/ ١٧٩٨ عن المعهد المصرى ، قارن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى «تاريخ عجائب الآثار» ، القاهرة ١٨٩١ ، الجزء السادس ص ٧٢ ومايليها .

٢٧ ـ الجزء الرابع ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

٢٨ـ انظر رقم ١٠٣ر٤ ، الجزء الخامس ص ٤٠٦ .

٢٩ـ رقم ١٤٧ر٣ : إلى الجنرال مارمونت .

٣٠ـ انظر أدناه .

٣١ـ الجزء الخامس ص ٥١٨ .

٣٢ـ الجزء الخامس ص ٤٠٦ .

٣٣ـ انظر رقم ١١ . ر٤ مقر القيادة ـ جبل كارميل ١٨/ ٣/ ١٧٩٩ الجزء الخامس ص ٣٦٣ـ ٦٦٣ .

٣٤ـ الجزء الرابع ص ٤١٣ .

٣٥ـ إلى شريف مكة رئيس الدين ، نصوص أوراق عديدة تتعلق بأنشطة ناپوليون الحربية والسياسية ، ديدوت ١٨٠٠ ص ٣٣٣ . المرجع الثانى ص ٣٠ (ملاحظة) فكر ناپوليون فى الحقيقة لا ينازع .

٣٦ـ الجزء الخامس ص ٤٩٠ رقم ٩٠١ر٣ .

٣٧ـ المرجع السابق .

٣٨ـ المرجع اللاحق .

٣٩ـ تواريخ من التقويم الثورى .

٤٠ـ لقد كان بمساعدة شريف مكة ، أن استطاع بوناپارت أن يؤمن الطريق إلى الهند .

٤١ـ انظر الجزء الخامس ص ٤٨١ ـ ٤٨٦ وكذلك ص ٤٩١ من رقم ٢٣٧ر٤ .

٤٢ـ أ ـ الحج يحقق تواصل كثير من الشعوب المختلفة ويؤكد بذلك تماسك الإنسانية بقدر كبير .

ب ـ إنه يكرس المساواة بين المسلمين بطريقة عملية ، هذه المساواة مطلقة ، جميع الحجاج يرتبطون بنفس الالتزامات ، السادة والخدم يتساوون حقا ، الإسلام برهن أنه أعظم وسيلة لمساواة الناس التى ذكرها كارلايل (كاتب فيلسوف إنجليزى) .

ج ـ تنوع العادات والأجناس واللغات تختفى داخل الانضباط الأخلاقى رغم وجود بعض المجرمين بين الحجاج لا ترتكب أى جريمة .

د ـ حرمات الحج هى نفسها انضباط .

هـ - مدته توطد التواصل بين مختلف الشعوب، ونتيجة لذلك هو يساعد بطريق غير مباشر على توسيع العمل السياسى.

و - القصص التى يرويها الحجاج سوف تتزايد نتيجة لتجاربهم الذاتية.

ز - بدون أداء هذه الممارسة الدينية، أعداد ضخمة من الناس ستظل تجهل أعظم الاكتشافات العلمية الحديثة وقد لايسمعون شيئا عنها، هذا بالتأكيد عامل بدائى للدعاية العلمية ولكنه لايقدر، انظر العدد الذى صدر فى يونيو عام ١٩١٢ فى مجلة العالم الإسلامى: «رواية عن الحج إلى مكة عام ١٩١٠ - ١٩١١» كتبها قاسم زاده. انظر كذلك رسالة نابوليون رقم ٤٫٢٣٨: رأس الدين الإسلامى هو صديقنا شريف مكة، الجزء الخامس ص ٤٩٢ مقر القائد القاهرة ١٧٩٩/٦/٣٠ انظر الملحق رقم (١)».

٤٣ - الجزء الخامس ص ٥٦١ - انظر رقم ٤٫٣٥٩ إلى بيك طرابلس ١٧٩٩/٨/١٥ أيضا رقم ٤٫٢٣٥، إلى سلطان دارفور ١٧٩٩/٦/٣٠.

٤٤ - انظر أعلاه.

٤٥ - يوناپارت قبل التعصب فقط فى الحرب، ولذلك قد لا يشعر ببسالة المسلمين فى الحرب.

٤٦ - بوناپارت يصنف التعصب بدقة تامة انظر أعلاه.

٤٧ - هذه هى الإشارة السياسية، الباقى تعليمات حرفية خاصة لكليبر.

٤٨ - الجزء الخامس ص ٥٧٢ - ٥٧٥.

٤٩ - انظر أعلاه.

٥٠ - انظر مثلا رقم ٣٫٠٧٤: إلى البريجادير چنرال ڤيال، حاكم إقليم دمياط ١٧٩٨/٨/٢٢ الجزء الرابع ص ٣٧٨.

٥١ - انظر رقم ٤٫٣٦٤. لا يستطيع المرء أن يصر - بما يكفى - على مثل هذه البلاغات، التى كانت رزينة كما كانت محددة وصارمة.

٥٢ - الجزء الخامس ص ٥٢٣ - ٥٢٦ هذه عبارة مروعة «المسلم الذى يصعد إلى سفينة ترفع علم الصليب، والذى يستمع كل يوم إلى عبارات التجديف ضد الله الواحد الأحد، هو

أقبح من الكافر نفسه» نفس المرجع . هذا البغض لعقيدة لا عقلانية استخدمه بوناپارت ولكنها كانت هى نفس عقيدته، هو فقط بالغ فى التعبير عنه .

٥٣ـ بوناپارت عرض عقيدة الثالوث المقدس بأسلوبه هو، ورفض المراوغات اللاهوتية .

٥٤ـ الجزء الرابع ص ٢٤١ رقم ٢٨١٨ر٢، بلاغ إلى سكان القاهرة، مقر القيادة الجيزة ٢٢ / ٧ / ١٧٩٨ .

٥٥ـ الجزء الخامس ص ٥٦٢ـ ٥٦٣ .

٥٦ـ هذا الملخص (وقعه القائد العام كما وقع السابق له) لم يكن أقل صراحة ولكنه مهم بالنسبة لمجاله الرسمى ويبدو أنه أكثر إثارة .

٥٧ـ الجزء الخامس ص ٥٦٢ـ ٥٦٣ .

٥٨ـ «أنا أشكركم لمظاهر التكريم التى قدمتموها للنبى محمد ﷺ» رقم ١١٥ر٣ مقر القائد القاهرة ٢٦ / ١٧٩٨٨ . انظر الجزء الرابع ص ٣٥٦ رقم ١٣ . ر٣. إلى قنصل فرنسا فى طرابلس، ١٨ / ٨ / ١٧٩٨ الجزء الرابع ص ٣٦٣ رقم ٠١٠ر٣. إلى الچنرال ڤيال حاكم إقليم دمياط : أنا أفترض أنك فعلت كل ما يلزم لإقامة احتفال مجيد يوم مولد النبى ﷺ الآتى بعد أربعة أو خمسة أيام. الاحتفال بوفاء النيل هنا كان بديعا، والاحتفال بمولد النبى ﷺ سيكون أفضل . الجزء الرابع ص ٤٢١ـ ٤٢٢ رقم ١٠١ر٣. إلى الچنرال مينو : لقد احتفلنا بمولد النبى ﷺ بتقديس وحماس مما جعلنى أستحق لقب ولى الله ٢٨/ ٨/ ١٧٩٨ . لم يستهزىء بالإسلام منذ الرسالة التى كتبت إلى مينو .

٥٩ـ انظر أعلاه رقم ٠٧٨ر٣. إلى أحمد باشا حاكم صولد وعكا (سيدون والقديس چين ـ عكا) ٢٢/ ٨/ ١٧٩٨ الجزء الرابع ص ٣٨٠ .

٦٠ـ رقم ٧٧ . ر٣ إلى المواطن بوڤوازينز .

٦١ـ الهلال رمز التقدم، فى مقابل الصليب رمز الظلم، إنصافا، يجب أن تعترف من وجهة نظر فردية أن دين الصليب نفسه لديه أمثلة متكاثرة للبطولة وإنكار الذات .

٦٢ـ انظر مايلى الوثيقة الواحدة والعشرين ، هناك ما قد تكون أعظم الآمال التى أعطيت للإسلام .

٦٣ـ الجزء الرابع ص ٣٨٠ ـ ٤

٦٤- انظر أى بيدارايد «اليهود فى فرنسا وإيطاليا وإسپانيا» مايكيل ليفى ١٨٥٩ ص ٥٨١ وما يليها، وأيضا جريدة رويديرار «استماع الأجهزة التشريعية ١١/٥ /١٨٠٠» .

٦٥- الجزء الرابع ص ٤٢٠ .

٦٦- الجزء الخامس ص ٢٢١-٢٢٢ .

٦٧- أرسل بعد ذلك كسفير لدى القسطنطينية .

٦٨- الجزء الرابع ص ٣٩ .

٦٩- تاريخ من التقويم الثورى .

٧٠- الجزء الرابع ص ٣٩ .

٧١- الجزء الخامس ص ٥٧٢-٥٧٥ .

٧٢- انظر الملاحظة الثانية على الصفحة التالية .

٧٣- وزارة الحرب : نظام إدارة الحرب رسائل ناپوليون جيش الشرق ١٤ يونيو إلى ١٤ يوليو ١٧٩٩ ، صندوق ٢٢ .

٧٤- انظر جورجود «يوميات لم تنشر» الجزء الأول ص ٣٤٨، الشيوخ كانوا دائما يقولون لى إننى إذا أردت أن أجعل نفسى شيخا جليلا، يجب على الجيش أن يصبح مسلما، ويجب على أن أرتدى عباءة، هذا ما كنت أريده، ولكنى لم أقدم على اتخاذ هذه الخطوة إلا بعد أن أتأكد من النجاح، بدون ذلك سوف أصبح مثل مينو موضع سخرية .

٧٥- يوجد خط أفقى هنا .

٧٦- إنه تأكيد تام لأهم نصوص نيقولا ص ١٢٣-١٣٢ وأيضا ١٤٤-١٤٦ انظر الوثيقة رقم (٣٩)، وكذلك جورجود يوميات لم تنشر الجزء الثانى ص ٢٧٥ .

٧٧- عن جومارد انظر مجلة ريڤيو ديچپيت السنة الرابعة، الجزء الرابع يناير-أبريل ١٨٩٧ .

٧٨- لقد كان بورينين ثم الچنرال بيرثيير رئيس الأركان .

٧٩- دعنا نكرر وجوب الاهتمام بهذه الملاحظات الحيادية المختلفة، بسبب الاختفاء الأكيد للمسودة الأهلية .

٨٠- أزيلت .

٨١ـ الجزء الخامس، ص ٥٦٣ وما يليها .

٨٢ـ فى نفس الوقت صدرت إليه أوامر دقيقة من مقر القيادة بمنوف، عند سد ترعة الفرعونية وبعض القنوات الأخرى «التى يبدو أنها تنقل المياه من فرع دمياط إلى فرع رشيد» إدارة الحرب الجزء الخامس، ص ٥٧٠ ، ٥٧١ , ١٩/ ٨/ ١٧٩٩ .

٨٣ـ عند عودتى بعد شهرين أو ثلاثة، أرجو أن أكون سعيدا بشعب مصر، وألا يكون لدى شىء أقدمه سوى الشكر والعرفان للشيوخ، ٢٢/ ٨/ ١٧٩٩ رقم ٣٧٧ر٤ الجزء الخامس، ص ٥٧٦ـ ٥٧٧ .

٨٤ـ انظر الجزء الخامس ص ٥٧٨ رقم ٣٨٢ر٤ إلى الإدارة التنفيذية ١٠/ ١٠/ ١٧٩٩ .

٨٥ـ انظر رواية لوسيان بونابارت فى «بونابارت وأوقاته» للسيد لانجشاربنتير ١٨٨٥ الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، ص ٣٢٧ـ٣٢٨ . انظر الملاحق.

٨٦ـ براهين: البند الأخير من الاتفاقية، والفقرات الأساسية أيضا، واحتفال التكريس نفسه . انظر ما يلى.

٨٧ـ رقم ٩٠١ر٣ إلى صاحب تيبو (انظر الملحق).

٨٨ـ عميرة . انظر مذكرات نابوليون التى كتبها جورجود.

٨٩ـ لقد قرأه جيدا؛ لأنه استطاع أن يكتب «الباشا وجميع الأسرى الأتراك، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم وهم يرون قدر احترام الفرنسيين للدين الإسلامى ولشريعة أقدس الأنبياء» رقم ٣٦٢ر٤ الأمر رقم ٢٩ ، ١٦/ ٨/ ١٧٩٩ ، الجزء الخامس ص ٥٦٢ـ ٥٦٣ .

٩٠ـ أى دين غير دين الإسلام يمكنه أن يجبر البراهمانية على التراجع، وهى التى تهدد العقل الإنسانى بقسوة.

٩١ـ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [سورة المائدة(٥) ـ الآية ٦٩] بالنسبة للمسلمين جهنم ليست أبدية، جميع الفقهاء يقرون بزوالها بعد زمن لايعرفه إلا الله يتوقف على كرمه ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [سورة الأعراف(٧) آية ٣٤] ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ**

وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [سورة هود : الآيات ١٠٨, ١٠٩] .

٩٢ - إجحاف واسع الانتشار، رغم أنه يتعارض مع التاريخ، و هو أن الرسول محمدا ﷺ كان عدوا للعلوم والفنون والآداب . انظر «مذكرات ناپوليون» أعلاه، والرسالة رقم ٢٣٨ر٤ .

٩٣ - مفهوم العدالة بعيدا عن تعارضه مع مفهوم الإحسان، هو وحده القادر على تزويد الإحسان بأعلى قدر من التحقيق. انظر نيقولا ص ١٣٢ .

٩٤ - رقم ٣٧٤ر٤ إلى الچنرال كليبر ٢٢/ ٨/ ١٧٩٩ .

٩٥ - انظر رقم ٣٦٧ر٤ .

٩٦ - ما الذى حدث لنسخة قرآن بوناپارت «ذات الحواشى» ؟

٩٧ - حول هذه النقطة، لدينا لتأكيدها إذا لزم الأمر كلمة كليبر انظر «مستخرج من الرسائل المصرية» طبعة تكميلية فى اليوم السادس من السنة السابعة، قل لهم (الشعب) إن حكومة جمهورية فرنسا عندما انتدبتنى لحكم مصر، كلفتنى بصفة خاصة أن أرعى سعادة الشعب المصرى، ومن بين جميع واجبات قيادتى كان هذا التكليف أقربها إلى قلبى .

شعب مصر يبنون سعادتهم بصفة خاصة على أساس دينهم، و احترامه لذلك سوف يكون أحد واجباتى الرئيسية، سوف أفعل أكثر من ذلك سوف أمجده، وسوف أسهم قدر استطاعتى فى عظمته وتألقه .

بعد أن تعهدت بهذا الالتزام، لن أخشى الأشرار ، الشعب الطيب سوف يراقبهم ويحيطنى علما بهم . بوناپارت الحاكم السابق اكتسب حب العلماء والشيوخ وكبار الشخصيات بعمله السليم والمستقيم .
أنا أيضا سوف أحافظ على هذا المستوى، وسوف أتبع خطواته، وسوف أكون جديرا بما قدمتوه له . إجابة الچنرال كليبر على الشيخ الموهادى فى (مقتطفات رسمية للجيش فى مصر) الجزء الثانى السنة التاسعة ص ٣ - ٤ .

٩٨ - لايستطيع الإنسان أن يكرر كثيرا أن هذه الفرضية تعارضها مجموعة من البينات الموثوق بها، ناپوليون كان بروحه مسلما تقريبا .

حتى ذكرى القديسة هيلين، تستشهد بالإمبراطور الفيلسوف، كنصير لتعدد الزوجات في المستعمرات الفرنسية .

٩٩ ـ الفكرة كانت عزيزة على بونابارت وبعد أن أصبح إمبراطورا، ناقشها مع العثمانيين .

رويدا رويدا ، فرض ناپوليون نفسه كمستشار لسليم، ولكن الأحداث سوف تبرر وسوف تتجاوز، أسوأ المفاهيم .

انظر إ . د / يالت «سياسة ناپوليون فى الشرق» مع اهتمام خاص بصفحات ٣٤١ـ ٣٤٢؛ كوار دى ڤيرنيل «ناپوليون الأول وفارس» .

١٠٠ ـ دعنا نتذكر أفضليات بونابارت الشخصية للقاهرة ومكة (انظر فيما يلى الملحق) رقم ٣٦٤ر٤ من المراسلات، بونابارت كان يرتبط بشدة مع فكرة تحالف فرنسى ـ إسلامى . كان أقل اهتماماً بفكرة مشاركة تركيا فى هذا التحالف .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

[الأنفال : ٧٣] .

عن حتمية ملاحقة العلوم، انظر الأحكام السلطانية، أ . لوروكس ١٩٠١ـ١٩٠٦ الجزء الأول ص ٩٨ وما يليها .

١٠١ ـ الجزء الخامس ص ٤٩٢ . لم يعد فى إدارة الحرب .

١٠٢ ـ تقويم الثورة .

١٠٣ ـ انظر سى . دى لاچونكير «الحملة المصرية» الجزء الخامس ص ٥٩٣ وكذلك «الانتصارات والغزوات» الجزء ١١ ص ٢١٩ .

١٠٤ ـ ناپوليون «الحملات الإيطالية والمصرية والسورية» الجزء الثالث فى طبعة الهاشيت ص ١٥٠ وما يليها .

١٠٥ ـ يوجز لاپيدارى سياسة بونابارت فى الشرق .

١٠٦ ـ انظر فيما بعد نقولا الجزء الثالث، ملاحظة رقم (٢) فى الملاحظات الخاصة والملحق رقم (١) . عززت الظروف فكرة الإسلام فى عقل بونابارت، بطريقة لايمكن أن تكون موضوع تساؤل، إن الانطباع ذهب إلى عمق كاف لايزول أبدا .

الجزء الثانى

الإسلام وبوناپارت

الإسلام وبوناپارت

• سرديات العرب عن بوناپارت .

من وجهة النظر التاريخية، كاتبان عربيان أعطيا هذا الموضوع اهتماما خاصا : نقولا ، والجبرتى[١] .

الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ولد فى القاهرة عام ١٧٥٤ ميلادية ١١٦٧ هجرية، كان أجداده كوكبة من العلماء البارزين .

الجبرتى كان من موالى آخر المماليك، كان ينتمى إلى فريق العلماء أثناء الاحتلال الفرنسى، انتخب عضوا فى الديوان الكبير الذى أسسه بوناپارت فى القاهرة. فى أواخر أيامه، كان يعيش فى قصر محمد على باشا، حيث كان يعمل مؤذنا للصلاة، مات ميتة عنيفة غامضة فى ليلة ٢٧ رمضان (١٨/ ٦/ ١٨٢٢) خرج من قصر محمد على بشبرا فى طريق عودته إلى القاهرة شُنق فى شارع شبرا، وربط بحبل فى قدم حماره. منع نشر أعمال الجبرتى، إلى أن بدأ عهد توفيق باشا الذى أمر بنشرها[٢] ، أما نيقولا ، فهو سورى كاثوليكى الدين ولد عام ١٧٦٣ ميلادية ومات عام ١٨٢٨ فى دير القمر بسوريا . أصول أسرته من القسطنطينية، كتابه عن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر، ظهر فى پاريس تحت عنوان «الحملة الفرنسية فى مصر بقلم نيقولا الترك» نشرها وترجمها السيد ديسجرانچيس سكرتير الملك . طبعت فى پاريس بإذن من الملك فى دار الطباعة الملكية عام ١٨٣٩[٣] . الجبرتى ونقولا جاهدا؛ لكى يظلا على الحياد .

إذا كان الجبرتى لايفهم شيئا عن بوناپارت الذى يريد ـ رغم ذلك ـ أن يروى قصته

نجد أن نقولا لم يقم فقط بالملاحظة ، بل قام أيضا بالمراقبة ، وهو لم يكن راضيا عن المماليك ، وكان يفهم العمل التنظيمى الذى حاول بوناپارت أن يحققه . شرح ببساطة المظاهر المتتابعة لهذا العمل ، دون أن ينسى نفسه فى هذا الاستطراد ، وأعاد روايتها بوعى مع توثيق قيم بأسلوب ينير الموضوع .

الجبرتى من الناحية الأخرى جمع أكثر الوثائق إنارة ، واستطاع بتعليقاته الشخصية أن يعتم كل شىء .

هل نحن نفترى على الشيخ الصالح ، عبد الرحمن الجبرتى؟ نحن نحترم شخصيته بقدر ما نأسف لعدم قدرته فى الحكم على الأشياء . لكى ندع القارئ يحكم بنفسه ، دعنا نأخذ موضوعا محايدا ، موضوع المعهد المصرى . رواية الجبرتى عنه مثيرة ولكنها صبيانية تماما ، ألم يكن فى القاهرة شيوخ آخرون يستطيعون وصف إنشاء هذا المعهد بذكاء أكثر؟! لدينا لتأكيد ذلك شهادة بوناپارت نفسه .

الوثيقة (٣٠)

الجبرتى عن المعهد المصرى

أقاموا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية وأبراجا ووضعوا بها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه ، وهدموا عدة دور من دور الأمراء ، وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم ، وأفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ومابه من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبى يوسف وبيت حسن كاشف القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمام بياضه وفرشه ، حدثت هذه الحادثة ففر مع الفارين وتركه وفيه عدد كبير من كتبهم وعليها خازن ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريدون المراجعة فيراجعون فيها مرادهم ، فيجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسٍ منصوبة موازية تختة

عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة مايشاء منها فيحضرها الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر .

إذاحضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة، لايمنعونه من الدخول إلى أفضل أماكنهم ويتلقونه بالبشاشه والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أوتطلعا للنظر فى المعارف، بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها الأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ممايحير الأفكار .

لقد ذهبت إليهم مرارا وأطلعونى على ذلك، فمن جملة مارأيته كتاب كبير يشتمل على صورة النبى ﷺ مصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ،هو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة، وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب، وحوله الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ بأيديهم السيوف .

وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو ﷺ راكب عليه، وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام صوفية، وجامع السلطان محمد وهيئة المولد النبوى وجمعيةأصناف الناس لذلك، وكذلك جامع السلطان حسين وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأيضا جامع أبى أيوب الأنصارى وهيئة صلاة الجنازة فيه، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام والصور والأشكال المرسومة وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنباتات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم الفرنسية .

ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض، ويعبرون عنه بقولهم : شفاء شريف. والبردة للبوصيرى، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها إلى لغتهم

الفرنسية ، ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ، ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضيات ومعرفة اللغات .

لديهم اجتهاد كبير فى معرفة اللغة (العربية) والمنطق ، ويدأبون فى ذلك ليلا ونهارا وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون فى أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت .

عند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة ، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض ، برباطات وبراريم لطيفة ، بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدرا من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها .

توجد أيضا أنواع المنكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن ، وغير ذلك (من الأجهزة) .

أفردوا لجماعة منهم إبراهيم كتخدا السنارى وهم المصورون لكل شىء ومنهم اريجو المصور وهو يصور صور الآدميين تصويرا يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ بجسم ، يكاد أن ينطق حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدة فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس صارى عسكر (القائد العام) وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لايوجد ببلادهم ، فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لايتغير ولايبلى ولوبقى زمنا طويلا .

كذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق . وسكن الحكيم رويا ببيت ذى

الفقار كتخدا بجوار ذلك، ووضع آلاته ومساحقة وأهوانه فى ناحية، وركب له تنابر وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح، وقدورا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانا أسفل وأعلى، بهما رفرف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة، وبها كذلك عدد من الأطباء والجراحين .

وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف چركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه، وخلاصات المفردات، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات .

ومن أغرب مارأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموجود فيها بعض المياه المستخرجه، فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فعلا المآن وصعدا من دخان ملون حتى انقطع وجف ماءا الكأس وصارا حجرا أصفر، فقلبه على اليمرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرنا منه، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض، ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (طلقة البندقية) انزعجنا منه فضحكوا منا، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح من الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلهما فى الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى إحداهما وأتى آخر بفتيلة مشتعلة، وأبرز ذلك فم الزجاجة فى الماء، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج مافيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا .

وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة، تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة

الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة، فيتولد فى حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا أمسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أوما قرب منها بيده الأخرى، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال بموجة سريعة(*)، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أوشيئا متصلا به، حصل له ذلك ولو كانوا ألفا أوأكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة، ينتج منها نتائج لايسعها عقول أمثالنا.

الوثيقة (٣١)

مقتطفات من الجبرتى(٤)

شهر رجب عام ١٢١٣ هجرية

فى يوم الاثنين سادس عشرة، سافر صارى عسكر (القائد العام) بوناپارت إلى السويس، وأخذ بصحبته السيد أحمد المحروقى وإبراهيم أفندى كاتب البهار، وأخذ معه أيضا بعض المديرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى والطون أبا طاقية وغيرهم، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وتختروان(**) وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية.

فى هذا اليوم شرعوا فى ترتيب الديوان على تنظيم آخر، وعينوا له ستين نفراً منهم أربعة عشر يقال لهم خصوص، وهم الذين يحضرون دائما، ويقال لهم الديوان الخصوصى والديوان الديمومى، والباقى بحسب الاقتضاء، والأربعة عشر وهم من المشايخ: الشرقاوى، والمهدى، والصاوى، والبكرى، والفيومى.

ومن التجار: المحروقى، وأحمد محرم.

ومن النصارى القبط: لطف الله المصرى.

(*) موجة كهربية.

(**) الهودج يوضع فوق الجمل لجلوس الراكب.

ومن الشوام : يوسف فرحات وميخائيل كحيل .

- رواحة الإنجليزى ، وبودنى ، وموسى كافر الفرنساوى .

ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيس ومترجمون . أما العمومى فأكثره مشايخ حرف ، و كتبوا بذلك طومارا(*) كبيرة نسخوا منها نسخا كثيرة وأرسلوا منها نسخا كثيرة للأعيان ، وألصقوا منها بالأسواق على العادة ، وأرسلوا للذين عينوا بالديوان أوراقا بأسمائهم شبه التقارير وصورة . صدرت تلك الطومار المكتتبة فى شأن ذلك وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض طول للإطلاع على مافيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر ، وهى مقولة على لسان بوناپارت كبير الفرنسيين ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم.

من أمير الجيوش الفرنساوية خطاب إلى كافة أهالى مصر : خواصهم ، وعوامهم .

نعلمكم أن بعض الناس ضالى العقول المجردين من المعرفة وإدراك العواقب سابقا أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر ، فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى - سبحانه وتعالى - أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت لأمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ، ولكن قد حصل عندى غيظ وغم شديدان بحسب تحريك هذه الفتنة بينكم ، ولأجل هذا أبطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان ؛ لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقا .

أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى

(*) الطومار ، والطامور ، : الصحيفة ، والجمع : طوامير .

ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلايجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه مني في هذا العالم، ولاينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله - سبحانه وتعالى - والعاقل يعرف أن مافعلناه بتقدير الله - تعالى - وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة.

أعلموا أمتكم أيضا أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدى، وقدر في الأزل أن أجيئ من الغرب إلى أرض مصر؛ لأهلك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذى أمرت به، ولايشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه.

أعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل - وكلام الله في كتابه صدق وحق - لايتخلف. إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم، فلترجع أمتكم جميعا إلى صفاء النية وإخلاص الطوية، فإن منهم من يمتنع عن الغي وإظهار عداوتي خوفا من سلاحي وشدة سطوتي، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر، يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور، والذى يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله - علام الغيوب ، واعلموا أيضا أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم؛ لأنني أعرف أحوال الشخص ما انطوى عليه بمجرد ماأراه، وإن كنت لاأتكلم ولاأنطق بالذى عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل مافعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لايرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده مايمنعه عن قضاء الله الذى قدر وأجراه على يدى، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة والسلام.

بعد إرسال هذه الخطابات لأعضاء الديوان رصدوا لهم شهريات تدفع لهم مقابل الواجبات التي يؤدونها لصالح كل من الفرنسيين والمسلمين .

الوثيقة (٣٢)

الجبرتى[٥]

فى هذا اليوم (٩ذى الحجة ١٢١٣ هجرية - ١٥/ ٥/ ١٧٩٩) حضر إلى السويس تسع دارات (بواخر) بها بن وبهار وبضائع تجارية، وفيها لشريف مكة خمسمائة فرق (مكيال معروف بالسعودية يساوى ١٦ رطلا) وكان الإنجليز قد منعتها من الحضور فكاتبهم الشريف، فأطلقوها بعد أن حددوا عليها أياما مسافة التنقيل والشحنة وأخذوا منها عشورا، وسامح الفرنسيس ابن الشريف من العشور، لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يوما وطبعوا صورتها فى أوراق وألصقوها بالأسواق وهو خطاب لبوسليك .

وانقضى هذا الشهر ولم يأت خبر صحيح عن فرنسيس الشام وماجرى لهم أوعليهم إلا روايات لايوثق بها ولايصح بالتواتر منها إلا تكرر هجوم الإفرنج على حصن عكا ولم يتركوا من حيلهم ومكايدهم شيئا إلا فعلوه، ولم ينالوا غرضا منها ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤].

وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التى من أعظمها امتناع سفر الحجيج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولاالصرة، وذلك من أشنع الحوادث التى لم يتفق نظيرها فى دولة آل عثمان أبدا. ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم.

الوثيقة (٣٣)

الجبرتى[٦]

وفى اليوم التاسع عشر من المحرم ١٢١٤ هـ ٢٥ يونية ١٧٩٩ م، هلك ميخائيل كحيل النصرانى الشامى وهو من رجال الديوان الخصوصى فجأة، وذلك من قهره

وغمه . ومنشأ ذلك أنه وزع عليه فى سلفة الفرنسيس ستة آلاف ريال فرانسه، وشرع فى تحصيله، ثم بلغه أن أحمد باشا الجزار قبض على شريكه بالشام وأخذ جميع ماله، فورد عليه الخبر وهو جالس يتحدث مع إخوانه فى حصة من الليل فخرجت روحه فجأة.

فى هذا اليوم كتبوا أوراقا وطبعوها ولصقوها بالأسواق كعادتهم، وذلك بعد أن رجعوا من الشام واستقروا، فنمقوا ذلك بترصيف بعض الفصحاء ونصها:

من محفل الديوان الخصوصى بمحروسة مصر خطاب لأقاليم مصر الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحيرة. النصيحة من الإيمان، قال تعالى فى محكم القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [البقرة: ١٦٨] وقال تعالى ﴿ **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ ﴿ **وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ (الآيات ١٤٢ من سورة الأنعام، و١٥١، ١٥٢ من سورة الشعراء) فعلى العاقل أن يتدبر الأمور قبل أن يقع فى المحظور.

نخبركم - معاشر المؤمنين - بألا تسمعوا كلام الكذابين؛ فتصبحوا على مافعلتم نادمين، وقد حضر إلى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش بوناپارت محب الملة المحمدية، ونزل بعسكره بالعادلية سليما من العطب والأسقام، ودخل مصر من باب النصر يوم الجمعة فى موكب عظيم وشنك جليل فخيم، وبصحبته العلماء والوجاقات السلطانية، وأرباب الأقلام الديوانية، وأعيان التجار المصرية. وكان يوما عظيما مشهودا، وخرج أهل مصر لملاقاته، فوجدوه هو الأمير الأول بذاته وصفاته وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه. شرح الله صدره للإسلام.

والذى أشاع عنه الأخبار الكاذبه العربان الفاجرة والغز(*) الهاربة، ومرادهما بهذه الإشاعه هلاك الرعية، وتدمير أهل الملة الإسلامية، وتعطيل أحوال الديوانية لايحبون راحة العبيد، وقد أزال الله دولتهم من شدة ظلمهم ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ [البروج: ١٢].

(*) الغز: جنس من الترك، والواحد غزى.

وقد بلغنا أن الألفى توجه إلى الشرقية مع بعض المجرمين من عربان بلى (بلى : قبيلة عربية من المهاجرين إلى مصر) والعبابدة الفجرة المفسدين يسعون فى الأرض فسادا وينهبون أموال المسلمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] ويزوِّرون على الفلاحين المكاتيب الكاذبة، ويدعون أن عساكر السلطان حاضرة، والحال، أنها ليست بحاضرة، فلاأصل لهذا الخبر ولاصحة لهذا الأثر، وإنما مرادهم وقوع الناس فى الهلاك والضرر، مثل ماكان يفعل إبراهيم بك فى غزة، حين كان يرسل فرمانات بالكذب والبهتان، ويدعى أنها من طرف السلطان ويصدقه أهل الأرياف سفهاء العقول، ولايقرأون العواقب فيقعون فى المصائب، وأهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم خوفا على أنفسهم وهلاك عيالهم وأولادهم، فإن المجرم يؤخذ مع الجيران وقد غضب الله على الظلمة ونعوذ بالله من غضب الديان فكانوا - أهل الصعيد - أحسن عقلا من أهل بحرى، بسبب هذا الرأى السديد.

ونخبركم أن أحمد باشا الجزار سموه بهذا الاسم لكثرة قتله الأنفس ولايفرق بين الأخيار والأشرار، وقد جمع الطموش (الأجناس المختلفة فى أسافل الناس) الكثيرة من العسكر والغز والعرب وأسافل العشيرة، وكان مراده الاستيلاء على مصر وأقاليمها، وأحبوا اجتماعهم عليه لأخذ أموالها وهتك حريمها، ولكن لم تساعده الأقدار، والله يفعل ما يشاء ويختار، وكان قد أرسل بعض هذه العساكر إلى قلعة العريش ومراده أن يصل إلى قطيا (من قرى سيناء قرب العريش)، فتوجه حضرة صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية، وكسر عسكر الجزار الذين كانوا فى العريش، ونادوا : الفرار ! الفرار ! بعدما حصل بعسكرهم من القتل والدمار وكانوا نحو ثلاثة آلاف، وملك قلعة العريش، وأخذ غزة وهرب من كانوا فيها وفروا، ولما دخل غزة، نادى فى رعيتها بالأمان وأمر بإقامة الشعائر الإسلامية وأكرم العلماء والتجار والأعيان، ثم انتقل إلى الرملة وأخذ مافيها من بقسماط وأرز وشعير وقرب؛ أكثر من ألفى قربة عظام كبار، كان جهزها الجزار للذهاب بها إلى مصر.

ثم توجه إلى يافا وحاصرها ثلاثة أيام ثم أخذوها وأخذوا مافيها من ذخائر الجزار. ومن نحوس أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه، ولم يدخلوا تحت طاعته وإحسانه فأعمل فيهم السيف من شدة غيظه وقوة سلطانه، وقتل منهم نحو أربعة آلاف أويزيدون بعد ماهدم سورها، وأكرم من كان فيها من أهل مصر، وأطعمهم وكساهم وجهزهم فى المراكب لمصر وخفرهم بعسكره خوفا من العربان وأجزل عطاياهم.

كان فى يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزار هلكوا جميعا، وبعضهم لم ينجه إلا الفرار. ثم توجه من يافا إلى جبل نابلس، فكسر من كان فيها من العساكر بمكان يقال له «فاقوم» وحرق خمسة بلاد من بلادهم وماقدر كان، ثم ضرب سور عكا وهدم قلعة الجزار التى كانت حصينة، فلم يبق فيها حجر على حجر، حتى إنه يقال: كانت هناك مدينة، وقد كان بنى حصونها وشيد بنيانها فى نحو عشرين سنة، وظلم فى بنائها عباد الله وهكذا عاقبة بنيان الظالمين، ولما توجه إليه أهل بلاد الجزار من كل ناحية كسرهم كسرة شنيعة ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] ؟ نزل عليهم كصاعقة من السماء ثم توجه راجعا إلى مصر المحروسة لأجل شيئين:

الأول: أنه وعدنا أنه سيعود إلينا بعد أربعة أشهر والوعد عند الحر دين.

الثانى: أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغزو العربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الأقاليم والبلدان.

فلما حضر، سكنت الفتنة وزالت الأشرار والفجرة من الرعية، وحبه لمصر وإقليمها شىء عجيب! ورغبته فى الخير لأهلها ونيلها وزرعها بفكره وتدبيره المصيب ويرغب أن يجعل فيها أحسن التحف والصناعة.

لما حضر من الشام، أحضر معه جملة من الأسرى من خاص وعام، وجملة مدافع وبيارق اغتنمها فى الحروب من الأعداء والأخصام، فالويل كل الويل لمن

عاداه، والخير كل الخير لمن والاه، فسلموا ياعباد الله وارضوا بتقدير الله وامتثلوا لأحكام الله، ولاتسمعوا كلام الغز الهاربين الكاذبين ولاتقولوا: إن فى الفتنة إعلاء لكلمة الدين، حاشا لله، لم يكن فيها إلا الخذلان وقتل الأنفس، وذل أمة النبى ﷺ.

الغز والعربان يطمعونكم ويغزونكم لأجل أن يضروكم فينهبوكم، وإذا كانوا فى بلد وقدمت عليهم الفرنسيس فروا هاربين منهم كأنهم جند إبليس.

لما حضر الصارى عسكر لمصر، أخبر أهل الديوان من خاص وعام أنه يحب دين الإسلام ويعظم النبى ـ عليه السلام ـ ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم بإتقان.

أمر بإقامة شعائر المساجد الإسلامية وأجرى خيرات الأوقاف السلطانية وأعطى عوائد الأوجقلية وسعى فى تحصيل أقوات الرعية.

انظروا هذه الألطاف والمزية ببركة نبينا أشرف البرية، وعرفنا أن مراده بناء مسجد عظيم بمصر لانظر له فى الأقطار، وأنه دخل فى دين النبى المختار ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

الوثيقة (٣٤)

الجبرتى (٧)

عام ١٢١٤ هجرية

وفى يوم (الثلاثاء) ٢٢ من المحرم أرسل كبير الفرنسيس جماعة من العسكر قبضوا على ملازاده (ابن القاضى التركى المعين من قبل العثمانيين) ابن قاضى العسكر، ونهبوا بعضا من ثيابه وكتبه، وصعدوا به إلى القلعة وحبسوه فانزعج عياله وحريمه ووالدته انزعاجا شديدا.

وفى صبحها اجتمع أرباب الديوان بالديوان وأحضرت إليهم ورقة من الفرنسيس قرئت عليهم، مضمونها: «أن صارى عسكر قبض على ابن القاضى

وعزله، وأنه وجه إليكم أن تقترعوا وتختاروا لكم شيخا من العلماء يكون من أهلها (مصر) ومولدا بها يتقلد القضاء، ويقضى بالأحكام الشرعية كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأى العلماء للعلماء» أجاب الحاضرون بقولهم إننا جميعا نشفع ونرتجى عنده العفو عن ابن القاضى.

وفى يوم السبت أفرجوا عن ابن القاضى، ونزل إلى عياله وبصحبته أرباب الديوان والأغا وشوامعه فى وسط المدينة؛ ليراه الناس ويبطل القيل والقال.

وفى نفس اليوم كتبوا أوراقا ونسخوا منها نسخا ولصقوها بالأسواق ونصها:

جواب إلى محفل الديوان من حضرة صارى عسكر الكبير بوناپارت أمير الجيوش الفرنساوية، محب أهل الملة المحمدية، خطابا إلى السادة العلماء: إنه وصل لنا مكتوبكم من شأن القاضى، نخبركم أن القاضى لم أعزله، وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده، وخان صحبتنا، والمعروف والإحسان الذى فعلناه معه، وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويتولى منصبه، ولم يكن ابنه قاضيا متوليا للأحكام على الدوام لأنه صغير السن، وليس هو أهلا للقضاء، فعلمتم أن محل حكم الشريعة خال الآن من قاضٍ شرعى، واعلموا أنى لاأحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين، فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم، لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى - الذى اخترتموه جميعا، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين.

وأخبركم أنى تلقيت ابن القاضى بالمحبة والإكرام حين حضر إلى وقابلنى ولم أزل حتى هذا الوقت أكرمه، ولم أحب أن يضره أحد - حكم أمننا له ولما رفعناه إلى القلعة لم نرد ضرره، رفعناه مكرما مثل مايكون فى بيته بالراحة والإكرام، والسبب الذى رفعناه به إلى القلعة، هو سكون الفتن والإصلاح بين الناس، وبعد لبس القاضى الجديد وجلوسه فى محل الحكم. مرادى أن أطلق ابن القاضى وأنزله من

القلعة وأرد له كل ممتلكاته، وأطلق سبيله هو وعياله يتوجه بهم حيث أرادوا واختاروا ؛ لأنه فى أمانى وتحت حمايتى، وأعرف أن أباه ماكان يكرهنى، ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه، وأنتم ياأهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول، وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمنلى من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها وأخبروهم أن حكم العثمنلى أشد تعبا من حكم المملوك وأكثر ظلما، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية، يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم من سائر الأقاليم، وأنتم ياأهل الديوان عرفرنى من المنافقون المخالفون أخرج من حقهم ؛ لأن الله ـ تعالى ـ أعطانى القوة العظيمة لعقابهم وإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف.

مرادى أن تعرفوا أهل مصر، أن قصدى ـ من كل قلبى ـ حصول الخير والسعادة لهم، فكما أن نهر النيل أفضل الأنهار وأسعدها كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين بإذن رب العالمين. والسلام، انتهى.

كما وضح من النصوص التى قدمها الجبرتى نفسه أن بوناپارت وصل إلى البعد الذى اقترح فيه على المسلمين تحالفا مبنيا فقط على أرضية الإسلام. هذا التحالف استهدف مواجهة النفوذ الروسى وتحييده.

الوثيقة (٣٥)

الجبرتى[٨]

شهر صفر عام ١٢١٤ هـ

فى اليوم السادس عشر، ورد الخبر بأن القوات العثمانية وصلت إلى قلعة أبى قير فى صحبة السيد مصطفى باشا، وهجموا على القلعة وقتلوا من كان فيها من الفرنسيس. «فى اليوم نفسه حضرت مكاتبة من الفرنسيين المتوجهين للمحاربة مع عسكر السلطان بجهة «أبو قير»، وصورتها :

«لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»

نخبركم محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليهم سلام الله ورحمته وبركاته، بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق إليكم، نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب، أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطراتة، وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل استكمال راحة الرعايا المساكين، وأقضى على أعدائنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفوا عموميا عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الإقليم فى راحة تامة ونعمة عامة.

وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركبا صغارا وكبار حتى ظهروا بثغر الإسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة النبة (أى القتال)، وكلل المدافع النازلة عليهم، فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية «أبو قير» وبدءوا ينزلون فى البر، وأنا الآن تاركهم وقصدى أن يتكامل الجميع فى البر، وأنزل عليهم وأقتل من لايطيع وأترك الطائعين وحدهم في الحياة وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر .

والسبب فى مجئ هذه العمارة إلى هذا الطرف الغشم بالاجتماع على المماليك والعربان؛ لأجل نهب البلاد وخراب الإقليم المصرى، وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسقو (الروس) الإفرنج الذين كراهيتهم ظاهرة لكل من كان موحدا الله. وعداوتهم واضحة لمن كان يؤمن برسول الله، يكرهون الإسلام ولايحترمون القرآن، وهم نظرا لكفرهم فى معتقداتهم يجعلون الآلهة ثلاثة، وأن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشريك.

ولكن عن قريب يظهر لنا أن الثلاثة لاتعطى القوة، وأن كثرة الآلهة لاتنفع، لأنه باطل بل إن الله الواحد هو الذى يعطى النصرة لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين، الماحق رأى الفاسدين المشركين، وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم، أن أعطانى هذا الإقليم العظيم، وقدر وحكم بحضورى لمصر لأجل تغيير الأمور الفاسدة وأنواع الظلم، وتبديل ذلك

بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة، ووحدانيته المستقيمة، إنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة، قوة مثل قوتنا؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا مافعلنا ونحن ـ المعتقدين ـ بوحدانية الله، نعرف أنه العزيز القادر القوى القاهر المدبر للكائنات، والمحيط علمه بالأرضين والسماوات، القائم بأمر المخلوقات. هذا مافى الآيات والكتب المنزلات.

ونخبركم بأن المسلمين إن كانوا بصحبتهم فسيكونون من المغضوب عليهم لمخالفتهم لوصية النبى ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وبسبب اتفاقهم مع الخارجين الكفرة اللئام؛ لأن أعداء الإسلام لاينصرون الإسلام، وياويل من كانت نصرته بأعداء الله، وحاشا لله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيدا أويكون مسلما ساقهم التقدير للهلاك والتدبير مع السفالة والرزالة.

كيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب، ويسمع فى حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار، كل يوم تحريف واحتقار؟ لاشك أن هذا المسلم فى هذه الحال أقبح من الكافر الأصلى فى الضلال، نريد منكم ياأهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار، لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الأقاليم والبلاد، لأن البلد الذى يحصل فيها الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص، انصحوهم بأن يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفا عليهم أن يفعل فيهم مثل ما فعلنا فى أهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور، بسبب سلوكهم المسالك القبيحة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تحريرا فى الرحمانية يوم الأحد ١٥ صفر سنة ١٢١٤.

ونسخوا من ذلك نسخا ولصقوها بالأسواق وفرقوا منها على الأعيان. انتهى

الوثيقة (٣٦)

[نيقولا الترك ـ مترجم عن النسخة الإنجليزية]

تقرير عما فعله القائد العام فى الاحتفال بذكرى مولد النبى محمد ﷺ يوم ١٢ ربيع الأول عام ١٢١٣ هجرية.

بعد أن استولى الفرنسيون على القاهرة جاء يوم ١٢ ربيع الأول الذى يوافق ذكرى مولد النبى محمد ﷺ الذى احتفل به الچنرال بوناپارت احتفالا عظيما فى ميدان الأزبكية، طبقا لعادة سكان القاهرة، كانت ليلة لاتنسى، جميع القوات المتمركزة بالمدينة اصطفوا مع طبلهم وآلاتهم الموسيقية، مع عرض رائع للألعاب النارية وطلقات مدافع كثيرة.

كان يوجد حشد كبير من الناس فى هذا الاحتفال الرائع، القائد العام حضر الوليمة التى أقيمت فى قصر الشيخ خليل البكرى الذى ترأست أسرته الاحتفال. الچنرالات وكبار الضباط والعلماء والأئمة وأعضاء الديوان كانوا جميعا ضمن المدعوين.

بوناپارت بعد ذلك منح الشيخ خليل البكرى رتبة «الأشرف»، مكان المبجل سيد عمر الذى هرب مع المماليك إلى سوريا. الشيخ خليل البكرى كان يحب الجمهورية الفرنسية، وكان المماليك يبغضونه لهذا السبب.

الوثيقة (٣٧)

[نيقولا الترك - مترجم عن النسخة الإنجليزية]

الأخبار عن موت بوناپارت كانت فى الحقيقة تنتشر فى مصر، كانت تسعد السكان.

يوم ١٠ محرم ١٢١٤ هجرية دخل القائد العام إلى القاهرة من بوابة النصر مع بطانة براقة، فى المقدمة دخل جنوده وحكام الأقاليم ووجهاء المدينة والعلماء وضباط الأنكشارية، السكان العظام جميعهم والمتواضعون تمكنوا من رؤيته فى هذا الاحتفال الرائع.

بعد وصوله إلى مقر إقامته بميدان الأزبكية، كتب بيانا بالفرنسية وأرسله إلى ديوان العلماء وأمرهم بترجمته إلى العربية، وطبعه وتوجيهه باسمهم إلى سكان

الأقاليم المصرية ، طلب أيضا أن يعلق هذا البيان فى شوارع القاهرة حتى يعرفه الناس هذا نصه :

من أعضاء الديوان الخاص لمدينة القاهرة المحروسة إلى سكان أقاليم الشرق والغرب ومنوف وقليوب والجيزة والبحيرة .

إبداء النصح فريضة دينية ، الله الأعظم قال فى القرآن بوضوح : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [البقرة : ١٦٨] وأوصى أيضا بعدم طاعة من ضلوا الطريق ؛ لأنهم لايعملون صالحا ، ويملأون الأرض فسادا .

العاقل يجب أن يتقى نوائب الحياة قبل وقوعها ، أيها المؤمنون الصادقون لاتستمعوا إلى الأفاقين فسوف تندمون على ثقتكم بكلامهم .

نحن نعلن لكم أن القائد العام سعادة بوناپارت حاكمنا وصديق أمة محمد وصل مع جيشه إلى القاهرة المحروسة ، عسكر مساء أمس فى العادلية دون أن يصيبه أى سوء وهو فى صحة جيدة ، ويقدم ولاءه لله العليم ، ويعترف بوحدانية الله .

دخل مدينة القاهرة من بوابة النصر يوم الجمعة ١٠ محرم عام ١٢١٤ من هجرة النبى محمد ﷺ مع حاشية رائعة وباحتفال ملوكى عظيم ، علاوة على العدد الكبير من الجنود ، كان يوجد بين رفاقه علماء الأزهر وكبار أسرة البكرى وشيوخ قبائل العنانى والداموراشى والقاضووى والحميدى والرفاعى والقادرى وأعضاء الديوان وكبار تجار القاهرة .

كان يوما لاينسى ولم يقم أبدا مثل هذا الاحتفال منذ زمن بعيد ، جميع سكان القاهرة خرجوا لاستقباله ، ورأو أنه كان بالتأكيد هو القائد العام نفسه - بوناپارت شخصيا ، بوناپارت أظهر بحضوره قدر زيف الإثارة التى فرضت على قصته ، الله ملأ قلبه بمشاعر حب الإسلام وألقى عليه معطف الصلاح .

أولئك الذين نشروا عنه الأخبار الكاذبة كانوا من العرب والمماليك المنحطين الذين أجبرهم على الفرار ، كان هدفهم من نشر هذه الأكاذيب ، هو ذبح الشعب

وتدمير أمة المسلمين ونهب خزائن الحكومة؛ لأنهم كانوا أعداءً للنظام العام؛ ولكن الله وضع نهاية لسلطتهم بسبب عنفهم وطغيانهم.

. . . ومع ذلك كان هناك أمران ـ هما اللذان حفزا القائد العام؛ لكي يعود إلى مصر ـ الأول: هو الوعد الذى قطعه أن يعود بيننا خلال أربعة أشهر والوعد دين على كل رجل شريف.

الأمر الثانى كانت الأخبار التى نقلت إليه أن بعض الرجال الفاسدين من بين المماليك والعرب كانوا يحاولون أثناء غيابه أن يثيروا الاضطرابات ويحرضوا على العصيان فى مدن وأقاليم مصر، ولكن بعد عودته تبددوا مثل السحب فى وسط النهار والتى تختفى بسطوع الشمس، طالما ظلت المساوئ والمظالم تثقل كاهل الناس تأكدوا أنه سوف يستخدم همته التى لاتكل وصفاته الحميدة ليلا ونهارا إلى أن يزيلها تماما، إنه مخلص تماما لجماهير القاهرة ومصر، ويعمل فقط من أجل رفاهيتهم ورخائهم، التحسينات من أجل الملاحة على النيل ومن أجل الزراعة هى محور أفكاره واهتماماته، هو أيضا يريد أن يرى الفنون والصناعة وهى تزدهر. بإيجاز هو ينشد كل شىء صالح، ولكنه يريدها فقط فى أحسن وضع لها.

أحضر معه من سوريا أسرى من علية القوم وآخرين أقل منهم منزلة، كما أحضر مدفعا وأعلاما غنمها فى المعركة، الويل لأعدائه وطوبى لمن يحبونه، ياعباد الله استسلموا لأحكامه؛ لأن الله هو سيد الأرض، أطيعوا قوانين الله واقبلوا قرارات الله؛ لأن الممالك هى ملك الله يعطيها لعباده الذين يختارهم، هذا هو الإيمان بالله الذى يجب أن يعتنقه الإنسان، لذلك يجب أن تبعدوا أنفسكم عما قد يسبب إراقة دمائكم ويشين نساءكم، لاتتسببوا فى قتل أبنائكم ونهب ممتلكاتكم تقولوا إن الثورة هى وسيلة لإعلاء كلمة الله، عسى الله أن يحفظكم من هذه الفكرة، الثورة قد تؤدى فقط إلى المتاعب وإراقة الدماء وتحط من قدر أمة النبى محمد ﷺ.

لاتعيروا آذانكم للمماليك وللعرب الذين يريدون إغراءكم وخداعكم، هم يريدون أن يسلبوا منكم كل ماتمتلكونه عندما كانوا هنا ورأوا الفرنسيين يتقدمون، ألم يهجروكم وفروا كجنود إبليس؟

أنتم تعرفون أن بونابارت القائد العام عندما وصل إلى مصر، أعلن لجميع

أعضاء الديوان أنه يحب الدين الإسلامى ، ويبجل الرسول ﷺ ويحترم القرآن ، ويقرأ شيئا منه كل يوم ويثق فيه ، هو أمر باستمرار أداء الفرائض الدينية فى المساجد والحفاظ على الهبات التى تقدمها الأوقاف . فى الحقيقة أعطى رعاية تامة لمساندة الناس .

تأملوا كل هذه الخدمات والمزايا التى أغدقها عليكم القائد العام بسبب حبه لنبينا أكرم خلق الله كلهم ، بالإضافة إلى ذلك ، وعدنا بأمرين لهما أهمية كبيرة ، الأول : أن يبنى فى القاهرة مسجدا عظيما لايرى الإنسان نظيرا له فى أى مكان فى العالم . ثانيا : أنه سوف يعلم كل إنسان بدخوله فى دين محمد ﷺ الذى اختاره الله .

علماء القاهرة والأئمة وقادة الأنكشارية وقعوا على هذا البيان كما رويناه أعلاه طبع ووزع فى جميع الأقاليم .

الوثيقة (٣٨)

اعتراف بونابارت بدين الإسلام

[نيقولا الترك ـ مترجم عن النسخة الإنجليزية]

القائد العام ترك منطقة «أبو قير» وعاد مع جيشه إلى الرحمانية ، من هناك أرسل عثمان خودجا إلى رشيد وأمر بإعدامه .

عندما علمت القاهرة بهزيمة الجيش العثمانى ، اعتبرها مسلمو المدينة نكبة حلت بهم ، أصيبوا بخيبة أمل قاسية وفقدوا الأمل فى أن يروا عودة مصر إلى الحكم الإسلامى . . . يوم ٥ من ربيع الأول عاد بونابارت إلى القاهرة ودخلها منتصرا بهيبة وجلال ، وأصاب أعداءه بالخجل والإحباط ، تبعه مصطفى باشا وابنه وبقية الأسرى الآخرين ، فى اليوم العاشر بعد وصوله ، ذهب إليه جميع الحكام والوجهاء والعلماء وأعضاء الديوان يهنئونه بعودته المنتصرة ، فحصهم بعيون ثاقبة ناقدة ، ولاحظ الألم والحزن الذى يشعرون به ، كان قد أحيط علما بالأمل الذى

كـان لديهـم للخـلاص منه وبالاضطرابات التى ثارت أثناء غـيابه، وكـان يعلـم عن الخطابات التى أرسلها لهم مصطفى باشا وعثمان بك عندما ذهبا إلى «أبو قير» قال لهم:

«أيها العلماء والوجهاء، أنا مندهش للحزن الذى سببه لكم انتصارى، أنتم لم تتعلموا بعد أن تقدرونى، ومع ذلك أنا قلت لكم كثيرا وأكرر لكم إننى أصبحت مسلما وإننى أومن بوحدانية الله وأجل النبى محمدا ﷺ وأحب المسلمين، أنتم لم تصدقوا كلماتى واعتقدتم أن الخوف هو الذى أثارها، ومع ذلك لقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم قدر عظمة قوتى وقدرتى، وتعرفون بدون شك أننى كنت دائما منتصرا، أنا أقول لكم ثانية أنا أحب النبى محمدا ﷺ، أحبه لأنه كان رجلا قديرا مثلى ولأن ظهوره على هذه الأرض حدث بأسلوب يشبه ظهورى، وأنا أيضا أتفوق عليه(*)؛ لأن غزواتى أكبر من غزواته، ومازالت توجد غزوات أخرى سوف تسمعون بآذانكم وترون بأعينكم الانتصارات الكثيرة التى سوف أحققها، إن كنتم تعرفوننى فسوف تعبدوننى(**) سوف يأتى الوقت الذى ستشعرون فيه بالذل سوف تندمون حينذاك على مافعلتم، وتذرفون الدمع حزنا على الزمن الذى تعيشون فيه الآن.

فى الحقيقة أنا أكره المسيحيين، أنا دمرت دينهم ودمرت مذابح كنائسهم وقتلت قساوستهم، ومزقت صلبانهم وأنكرت دينهم ومازلت أراهم يسعدون لسعادتى ويشاركوننى أحزانى، كيف إذن تريدوننى أن أعتنق الدين المسيحى ثانية؟ وإذا اتبعت هذا الطريق ماالفائدة التى سوف ترونها لى فى هذا ؟ على أى حال لاتتدخلوا فى هذه الشئون وفقوا أنفسكم فى قانون الله المتعال، كونوا هادئين وراضين حتى تنعموا بالسلام وبالحظ السعيد.

لقد حذرتكم مرارا وأعطيتكم نصيحة مفيدة إن عرفتم كيف تقدرونها، وإذا كنتم تتذكرونها سوف تستمدون منها الفائدة والرخاء وإذا رفضتمونها سوف تواجهون السوء وسوف تحزنون».

(*) يقصد فى الانتصارات العسكرية. وفى هذا سوء تقدير، فالعبرة بالنهاية والنتائج كما يقولون، بالإضافة لسوء الأدب من مسلم ـ المترجم.

(**) بالمفهوم الأوروبى، يقصد تحبوننى حبا جما، كما نقول: حب لدرجة العبادة ـ المترجم.

بعد هذا الحديث انسحب العلماء، وهم قلقون وذاهلون مما سمعوه، لم يستطع أى واحد منهم أن يرد عليه.

بوناپارت أعطى مصطفى باشا وابنه وبعض أعضاء حاشيتهم قصرا رائعا يعيشون فيه، وزودهم بالإحتياجات الضرورية للحياة، بعد ذلك بدأ يكتب للحكومة العثمانية بوساطة مصطفى باشا، ذكرهم فى خطابه بالصداقة السابقة بين فرنسا والباب العالى والتحالف الذى كان بينهما الذى استمر لعدة قرون، ثم حرضهم ضد الدول الأوروبية الأخرى، وقال لهم: إن السياسة الأكثر ملاءمة للسلطان الكبير هى أن يترك الفرنسيين يثبتون أقدامهم فى مصر، وأن وجود الفرنسيين فى هذه الدولة أفضل كثيرا من وجود المماليك، وعد بطاعة أوامر فخامته وأكد له أن الصلاة سوف تقام دائما باسمه، وأن الأموال سوف تصك دائما بخاتمه، وأن الحج سوف يستمر كالعادة، وأخبر أن الفرنسيين سوف يدفعون الضرائب المعتادة إلى خزينة القسطنطينية. مصطفى باشا أرسل هذا الخطاب مع أحد أعضاء حاشيته.

نجاحات الإنجليز فى نفس هذا الوقت أثارت رد فعل عنيف لدى القائد العام الذى أجهد نفسه فى الإعداد لرحيله إلى پاريس.

لقد ذكرنا قبل ذلك أن بوناپارت أرسل عثمان خودجا إلى رشيد، وضع هذا الرجل فى السجن فور وصوله، الچنرال الذى يحكم المدينة استدعى شهودا مسلمين وضعت شهادتهم أمام مجلس خاص. الشهود أعلنوا أمام القاضى والمفتى أن عثمان خودجا كان طاغية يستحق أن يموت. الچنرال بعد ذلك أصدر حكما وقعه جميع الوجهاء وبعد استعراضه عبر شوارع المدينة أمر بإعدامه، قام أيضا بنشر هذا الحكم فى جميع الأقاليم؛ لنشر خبر إعدامه.

يوم ١٢ ربيع الأول، أمر القائد العام كما حدث فى العام الماضى بالاحتفال بمولد النبى ﷺ. فى هذه المناسبة قام بموكب رائع عبر شوارع المدينة، وجمع على مائدة وليمة فاخرة لمصطفى باشا وجميع العلماء والأئمة، العيد صاحبته الأناشيد الموسيقية.

بعد أربعة أيام بذريعة قيامه بزيارة سكان الأقاليم لتهدئتهم، ترك القاهرة مع

حرسه الخاص، أخذ معه أيضا ٣٠٠ جندى والچنرالات أليكساندر بيرثييه ومرات وتقدم أولا إلى مدينة منوف، ومن هناك إلى الإسكندرية، بعد وقت قصير من وصوله استعد للرحيل، ثلاثة قوارب كانت فى انتظاره حمل إليها تحت جنح الظلام صناديق مليئة بالاحجار الكريمة وأوشحة النبالة وسلعا ومواد وأشياء حصل عليها فى الحروب. كان معه أيضا مماليك صغار السن مكلفون بخدمته.

بعد إتمام هذه الاستعدادات، أقام وليمة كبيرة للقائد سميث القائد العام الإنجليزى. هذا الأخير فى الفترة التى رفع فيها الفرنسيون حصارهم عن عكا، وصل بسفنه أمام شواطئ الإسكندرية. جرت العادة بين الأوروبيين عندما يكونون مشتبكين فى حرب أن يروا بعضهم بود متبادل، بوناپارت أغدق على القائد سميث جميع أنواع الاحترام وأعطاه هدايا ثمينة. التمس منه بعد ذلك إذنا بإرسال ثلاثة قوارب صغيرة إلى فرنسا.

بعد أن عاد القائد سميث فى نفس هذه الليلة إلى سفنه، صعد بوناپارت وحاشيته إلى القوارب الثلاثة وتسلل خارجا تحت غطاء ريح عاصفة. لم يعرف سميث برحيله إلابعد يومين.

كان لهذه الأخبار تأثير كبير عليه، أبحر فورا لملاحقته ولكنه لم يستطع أن يحصل على أى أخبار عنه ولم يجد له أثرا، انتهز بوناپارت فرصته وهرب كالطائر من قنصه، ونجا من الإنجليز بذكائه الخارق وصفاء عقله، وهكذا بعون من الله بعد وجوده فى مصر لمدة ١٤ شهرا استطاع أن يخلص نفسه ويعود إلى پاريس.

عودته إلى فرنسا كانت واحدة من أكثر الأحداث روعة حينذاك، أذهلت المعاصرين له، قالوا: إنها برهان على أن قدره كان سعيدا، قبل صعوده إلى السفينة، كتب إلى الچنرال كليبر الذى كان فى مدينة دمياط حينذاك يخبره برحيله، وعينه فى هذا الخطاب قائدا عاما مكانه، ووعده بأنه سوف يرسل إليه المساعدات والتعزيزات عندما يصل إلى فرنسا، أيضا أكد للچنرال دوجوا نائبه فى القاهرة تعيينه حاكما لها، وألح عليه أن ينقل خبر رحيله إلى أعضاء الديوان؛ لكى ينشروا الخبر بين الأعيان وبين الناس، وأن يؤكد لهم أن سلامتهم وسلامهم لن يتعرضا لأى متاعب أكثر مماسبق.

بوناپارت كتب أيضا رسائل لجميع الجنرالات وأعطاهم تعليمات عما يجب أن يكون عليه سلوكهم أثناء غيابه، ونصحهم أن يحسنوا حماية الدولة ورعاية الناس ووعد بإرسال المساعدة وبعودته هو نفسه قريبا مع قوات مدربة قوية. الفترة التى أشار إليهم أنها سوف تمضى قبل عودته كانت أربعة أشهر كاملة، إذا سمح لهذه الفترة أن تمضى دون ظهوره ثانية، سوف يسمح لهم أن يسلموا الدولة سلما إلى المسلمين، وأن يأخذوا عليهم شروطا خلال تدخل الإنجليز قبل عودتهم إلى پاريس.

عندما انتشرت أخبار رحيل القائد العام عبر الدولة، فرح السكان وحزن الفرنسيون. الچنرال دوجوا أمر أعضاء الديوان أن يكتبوا إلى الأقاليم؛ ليحيطوهم علما بهذا النبأ.

فيما يلى نص خطابهم:

« من المجلس الخاص لجميع أقاليم مصر فى الجنوب وعلى شاطئ البحر لجميع الناس عامة، عسى الله أن يرعاكم برحمته».

نحيطكم علما أن الچنرال دوجوا نائب قائد عام الجيش بوناپارت العظيم، كتب إلى الديوان ليعلن أن قائد عام القوات الفرنسية قد رحل إلى فرنسا، الهدف من رحلته هو أن يحل السلام فى جميع أقاليم مصر، بالإضافة إلى أنه تلقى أوامر من الجمهورية الفرنسية بسرعة عودته؛ لأن غيابه استمر وقتا طويلا. الچنرال دوجوا القائم مقامه قال لنا: إن بوناپارت قبل رحيله، اختار مكانه رجلا حصيفا مليئا بالحب والاهتمام لجميع الناس، وعينه قائدا عاما للجيوش الفرنسية، القائم مقامه أوصانا أن نظل دائما واثقين من حماية ديننا ونسائنا وتجارتنا وثروتنا وجميع ضروريات الحياة، كما كنا مع بوناپارت العظيم. نحن نوصيكم أيها الناس ألا تطيعوا من يثيرون الثورة وأن تبتعدوا عن الشغب والعصيان وأن تلتزموا بأمر خالق كل شىء. لكم التحيات».

الوثيقة (٣٩)

[نيقولا الترك - مترجم عن النسخة الإنجليزية]

قلنا سابقا إن القائد العام كليبر كان متبعا تعليمات سلفه بوناپارت، استمر يكتب إلى الباب العالى من خلال مصطفى باشا كوسيط ينشد موافقته على قيام الفرنسيين بإحتلال مصر طبقا للوعود التى ذكرناها سابقا، الحكومة العثمانية لم تكن لديها رغبة للموافقة على هذا المطلب، ولكن الوزير الكبير اقترح اتفاق سلام طبقا لشروط والتزامات عادلة، من بينها الالتزام بإعادة تسليم مصر المحروسة، وإخلائها بطريقة لاتتعرض فيها القوات الفرنسية لأى هجوم أثناء انسحابها.

عندما أدرك الچنرال كليبر أن الباب العالى لن يسمح أبدا ببقاء الفرنسيين فى مصر، وافق على الانسحاب طبقا لبنود معاهدة محددة وواضحة، تضمن سلامتهم ولكن قبل التصديق على هذه المعاهدة، أرسل إلى معيد الچنرال ديسايكس المعروف بحكمته وقدرته.

هو أيضا جمع بعض الچنرالات القدامى وكون منهم لجنة شرح لهم فيها الأوضاع القائمة، ورأى أن معظم الحاضرين يرغبون فى مغادرته مصر، قالوا: إنهم بإفتقارهم إلى التعزيزات وجدوا أنفسهم معرضين أكثر من أى وقت مضى لعداء وكراهية السكان، وأن الوقت الذى حدده بوناپارت لعودته إلى مصر قد انقضى فعلا دون أن يعود.

فى هذا الوقت وصلت خطابات من الوزير الكبير يهددهم فيها بأنه سوف يقضى على الفرنسيين إن لم يخرجوا من مصر، أعلن لهم أنه سوف يزحف ضدهم برجاله الأقوياء وأبطاله الذين يبلغ عددهم عدد ذرات الرمال وتبلغ قوتهم قوة الإعصار وبفرسانه الذين لايقهرون بسيوف حادة قوية. دعاهم إلى تسليم الدولة؛ لكى يتجنبوا إراقة دمائهم ودماء الناس، وحذرهم إن لم يقوموا باتباع نصيحته وإن لم يخافوا قوته، فإنهم سوف يدمرون وسوف يندمون جبن لايجدى الندم أى نفع.

الچنرال كليبر أجابه بهذه التعبيرات: « بالتأكيد أنت تقول الحقيقة: جنودكم عددهم مثل عدد النجوم فى السماء، هذا أمر معروف جيدا، ولكنهم يبعدون عن

الولاء لكم كبعد النجوم عن الأرض، ثانية أن تقارن عددهم بعدد رمال البحر لاشك فى هذا، عددهم لايحصى ولكن القليل منهم يعرفون كيف يواجهون عدوا وينجون من عدوانه، قلوبهم أصغر حجما من ذرات الرمال، وقوتهم لاتساوى قوة نملة.

أما بالنسبة لقواتنا هى قليلة العدد هذا حقيقى، ولكنها لاتقهر فى المعركة، هم قريبون منا دائما مطيعون، وإذا طلبنا منهم أن يسيروا إلى موتهم سوف يسيرون، وإذا استدعيناهم سوف يعودون، وإذا منعناهم من أن يفعلوا أى شىء سوف يتوقفون عن عمله. فى أى لحظة من اليوم نحن على استعداد لأن نقاتل وأن نهزم الفرسان والرجال الأقوياء، ونسلم أنفسنا للمصير الذى قدره الله ـ الغفور ـ لنا».

* * *

الوثائق التالية (مقتطفات من موضوعات مختلفة ومراسلات تتعلق بعمليات جيش الشرق فى مصر ومطبوعات عن تنفيذ حكم المحكمة الصادر بتاريخ ٧ نيڤوز من السنة التاسعة من تاريخ الجمهورية الفرنسية) يبدو أن لها أهمية كافية لأن يعاد ذكرها هنا، حتى إذا كان ذلك فقط للتحفيز على نشر مواد مماثلة.

تبادل صريح للأفكار والمشاعر حدث بين الإسلام وبين الجمهورية الفرنسية، لم يفقد شىء منهما؛ أهميتهما أوجبت ظهورهما معا .

* * *

- **رسائل من الديوان، وشريف مكة، وسلطان دارفور الخ.**

الوثيقة (٤٠)

١ ـ خطاب أرسله شيوخ وأعيان القاهرة إلى شريف مكة

بعد التوجه إلى الله بالدعوات الحارة التى لا نتوقف عن دعائه بها؛ لكى يحفظ الأيام الغالية لمولانا أمير المؤمنين، جوهرة السلالة الملكية الهاشمية، زهرة تاج سلالة النبى ﷺ ؛ الشريف غالب، سلطان مكة؛ ندعو الله أن يرفعه إلى أعلى درجات المجد، وأن يخلع عليه أعظم الأمجاد، ويمنحه الحماية، ويحفظه من كل سوء فى الليل والنهار، نظرا لصفاته العظيمة، أقوى الشفعاء.

يشرفنا أن نخبر مولانا، الذى لا تتوقف روحه الفياضة عن رعاية مصالح الدين والمؤمنين، كما يشرفنا أن نخبر سيد ذرية عبد مناف، أعظم أسيادنا الأشراف، وجميع علماء الإسلام فى مكة، والقضاة، وأئمة الوعظ، وجميع التجار، وموظفى حكومة المدينة المقدسة، أنه فى اليوم السابع من شهر صفر، الموافق يوم السبت، ظهر الجيش الفرنسى على أراضى الجيزة على الشاطئ الغربى للنيل، واشتبك هناك مع المماليك فى معركة استمرت ساعتين. نتيجة المعركة كانت مميتة للمماليك الذين فروا مع غروب الشمس، تاركين فى ميدان المعركة عدداً كبيراً من الفرنسيين. فى صباح اليوم التالى ذهب وفد من علماء القانون وأعيان القاهرة إلى الجيزة، يلتمسون الأمان والحماية للمواطنين من غير المماليك ومن يوالونهم.

القائد العام وافق على مطلبهم، نفس الوفد طلب من القائد أن يسمح لهم بالدعاء لجلالة الإمبراطور فى خطبة صلاة يوم الجمعة كل أسبوع كما تعودوا، سمح لهم بذلك رسميا، وأضاف أنه هو نفسه صديق وفى للإمبراطور العثمانى، وأن جميع من يشايعونه أعزاء عليه، وجميع أعدائه هم أعداء له أيضاً.

أمر فى الحال بحرية أداء الفرائض الدينية العادية فى مدينة القاهرة، وحرية الأذان للصلاة، وحرية قراءة القرآن، وفتح المساجد، وباستمرار أداء جميع أعمال العبادة أسعده أيضًا أن يخبر الوفد أنه نفسه استوعب تماما الإيمان بأنه لا إله إلا الله، واحترام الفرنسيين عامة لنبينا ولكتابنا المقدس (القرآن)، واقتناع الكثير منهم بسمو الدين الإسلامى على بقية الأديان؛ ولكى يبرهن على ذلك؛ استشهد بتحريره لجميع المسلمين الذين كانوا عبيدا فى مالطة، التى أسعده الحظ بالاستيلاء عليها وبتدميره لكنائس المسيحيين وصلبانهم فى الدول التى قام بغزوها، وخاصة فى مدينة ڤيينا، حيث رفع الظلم الذى فرض على المسلمين هناك، وفى روما حيث قلب عرش البابا الذى أجاز مذابح المؤمنين؛ هذا العدو الأزلى للدين الإسلامى الذى جعل المسيحيين يعتقدون أن إراقة دماء المؤمنين هو عمل صالح فى نظر الله، لم يعدله وجود من أجل سلام المؤمنين الذين يرعاهم الله برحمته.

عندما اقترب الحجاج من القاهرة، ذهب قائد الجيش الفرنسى بنفسه إلى إقليم

الشرقية بعد أن علم أن اللصوص والسفاحين العرب شردوهم وسلبوهم، وقامت القوات الفرنسية بجمع من نجوا من الموت والسلب، وأحضروا لهم الركائب، وقدموا الطعام والشراب للجائعين والعطش.

أرسل الچنرال قبل رحيله إلى الشرقية بعدة أيام، رسالة إلى قافلة الحجاج يدعوها إلى السفر مباشرة إلى القاهرة، حيث يستقبلهم بترحاب شديد. لسوء الحظ لم تصلهم هذه الرسالة، ووقع الحجاج فريسة لسوء الحظ.

افتتاح قنال مدينة القاهرة حدث هذه السنة - ببهجة غير عادية - دون شك لإسعاد المؤمنين، وإزالة مخاوفهم. وزع الجنرال مبالغ كثيرة من الصدقات على الفقراء، وأقام وليمة للأعيان. بالإضافة إلى ذلك، انفق مبلغا كبيرا من المال على الاحتفال بمولد أمير الأنبياء والذى كان أكثر بريقًا، وأسعد بذلك قلوب المؤمنين، نحن عباد الله، ونحن إليه راجعون.

يجب علينا - أيضًا - أن نخبرك أن الچنرال أبدى رغبة شديدة فى تعيين أمير للحج، ولجميع الترتيبات التى تسبق رحلة الحج. لقد قررنا سويا معه أن نمنح هذا المركز الرفيع للمبجل الأمير مصطفى أغا، نائب سعادة «أبى بكير باشا»، حاكم القاهرة، ونحن نعتقد أن هذا الاختيار سوف يكون مقبولا لدى الباب العالى هذا الاقتراح أيضًا نشر السعادة والثقة بين المسلمين.

قائد الجيش الفرنسى أبدى حماسًا كبيرًا تجاه مصالح الحرمين المقدسين، وأجهد نفسه بنشاط مع كل شىء يمكن عمله لرحلة قافلة الحجاج، ونصحنا أن نحيطكم علما بذلك، كشهود عيان لاهتمامه بهذا الهدف المهم حتى تقوموا أنتم، من جانبكم، بعمل ما قد ترونه مناسبًا.

السلام على الرسول الكريم وعلى آله وأصحابه.

حرر بالقاهرة، يوم ٢٠ من ربيع الأول، عام ١٢١٣ هجريا.

عدد كبير من التوقيعات.

الوثيقة (٤١)

٢ ـ خطاب من شريف مكة المكرمة

بعون من السماء، عسى أن يصل هذا الخطاب إلى القاهرة، وأن يقدم إلى الأمير بوناپارت صديق الكعبة المكرمة، عسى أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد آخر الأنبياء، وأمير رسل الله، والصلاة والسلام على آل محمد وعلى أصحابه أجمعين.

ما يلى الخاتم الكبير لشريف مكة، حيث يقرأ الإنسان:

عبد الله القادر، غالب بن مسعود، سنة ١٢٠٢ هجرية (السنة التى تولى فيها الحكم).

من الشريف غالب بن مسعود أمير مكة إلى الأمير بوناپارت حامى العلماء، وصديق الكعبة المشرفة.

بعد تقديم تحياتى لكم، أحيطكم علما بأننى استلمت خطابكم الودى، وفهمت مضمونه، ولاحظت ـ خاصة ـ أنك سلمت مسئولية قافلة الحجاج المسلمين إلى نائب باشا القاهرة، وأنا لا أستطيع إلا أن أرحب بهذا التعيين.

أنت قلت لى: إنك قررت تشجيع الحجاج المسلمين على زيارة بيت الله الحرام، وإنهم يحتاجون إلى الأمان والحماية من جانبنا، ليس هناك أى ريب أنهم سوف يتلقون هذه الحماية المناسبة، ولن يعترض أحد أولئك الذين سوف يأتون فى سلام لزيارة الكعبة المكرمة، وقبر الرسول، الله أمر ببناء بيته المقدس ليجعله مكانا للقاء المسلمين، وهكذا يمكن لأى إنسان أن يحضر، ويكرس نفسه طبقا للعادة لأداء مناسك الحج، ولن يكون هناك شىء يخشاه.

بالنسبة لما قلته حول تشجيع تجارة البن، يجب أن تعرف أن تجار الحجاز ما زالوا غير مطمئنين بالقدر الكافى بالنسبة للمتاعب التى واجهتهم عادة من المماليك، وإذا كنت عازما أن تعطى هذه التجارة جميع التوسعات الممكنة، عليك أن تأخذ بعض

الإجراءات لتهدئتهم، وأن تحيطهم علما بالرسوم التى سوف تفرضها على البن وعلى السلع الأخرى. إذا اتخذت هذه الخطوات سوف ترى أنهم سوف يحضرون جماعات، بدون ذلك سوف يمنعهم خوف المتاعب، التى تتعرض لها أعمالهم التجارية، من الحضور إلى مصر.

ما قلته لى أيضًا عن سوء معاملة العرب للحجاج المسلمين - هذا - بالتأكيد، لن يحدث بعون من الله، وبفضل حمايتكم القوية لهم.

التحية والسلام على من اتبع الهدى.

الوثيقة (٤٢)

٣ - خطاب من ديوان القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم.

من أعضاء ديوان القاهرة، إلى بطل الضعفاء والمساكين، وحامى العلوم والعلماء، وصديق الدين الإسلامى ومن يؤمنون به، وراعى اليتامى والمظلومين، ومدبر شئون الإمبراطوريات والجيوش، الأمير العظيم المجيد الباسل للجيش الفرنسى القائد العام بوناپارت، عسى الله أن يغدق عليه كافة النعم، من الشفق إلى الغسق، تحت حماية أنبل الخلق، سيدنا محمد ﷺ .

بعد أن ندعو الله أن يحفظك، وأن يعيدك إلينا سالما، إن أردت أن تعرف الأوضاع فى القاهرة، وفى أقاليم الشمال والجنوب، والشرق والغرب، هى فى سلام ووئام تام، بعيدة عن المتاعب، وعن أى نوع من السيئات. المساجد والأسواق فى نظام رائع. النبلاء والتجار وعامة الناس لديهم أعظم تقدير لما قدم إليهم من طيبات كثيرة، ولا يتوقفون عن التضرع إلى الله لنصرته وسلامته من كل سوء.

مغمورون هكذا بالنعم الإلهية فى فيض من الوفرة والهدوء اللذين يتمتعون بهما، ويشعرون بإعجاب لحكمة وصلاح الجنرال الذى يحكم إقليم القاهرة باسمكم، ويدركون أن هذا الاختيار هو بُرهان على رعايتكم العظيمة لهم.

القائد له تدبير رائع، وهو يتبع القواعد بإحساس كامل بالعدالة.

المدير العام للشئون المالية عظيم فى نبله، وموهبته وصلاحه، ورحمته. أمير الأشراف، الشيخ البكرى، راسخ دائمًا فى صداقته؛ الشيخ الشرقاوى يعرف كيف يسترضى الجميع من خلال استقامته وصلاحه؛ الشيخ المهدى يميل دائما للشكر؛ المشرف لوسوكيار كيبيا هو دائمًا جوهرة العالم. أخيرًا، جميع سكان مصر يدعون الله من أجل عودتك، التى إن قدرها الله سوف تكون ناجحة وقريبة. الجميع يتضرعون إلى الله أن يحمى سواعدك ضد الطغاة، وأن يفتح لك أبواب الهداية.

فى اليوم السابق لرحيلك، جمع الجنرال دوجوا أعضاء الديوان العام الستين، وأوصاهم أن يتوقعوا سير الأحداث وأضاف: ، «أولئك الذين سوف يسيرون فى طريق العدل والعقل سوف ينالون كرمك ورحمتك، ولكن أولئك الذين سوف يزرعون المتاعب والشغب سوف يعانون من جميع السيئات التى يجلبونها على أنفسهم» . الجميع شكروا له نُصحه وموقفه الودود.

عاد إلينا فى اليوم الرابع واستدعى قادة المناطق ومديرى الأسواق العامة جميعهما والشخصيات البارزة فى المدينة. أحاطهم علما بأن أى إنسان يشوه الحياة الهادئة فى مناطقهم أو أسواقهم أو فى الأماكن العامة ، فإنه سوف يعاقب المسئولين الرسميين الذين فشلوا فى منع ذلك. أوصاهم أيضًا بوجوب معاقبة المفترين ومن يقومون بنشر الشائعات الكاذبة.

هذا النقاش كان له أفضل النتائج بين سكان القاهرة، كلماتك النبيلة انتشرت فى جميع الأقاليم؛ وشكرا للإجراءات الحكيمة التى اتخذتها فعلا، قوة اهتماماتكم انطبعت فى عقول الجميع، وأزالت إلى الأبد جميع مؤشرات الخلاف أو العصيان.

نرجوكم أن تخبرونا بالأحداث فور حدوثها، وأن تطمئنونا عن صحتكم، عسى الله أن يحفظها لنا من خلال شفاعة الرسول ﷺ.

- السيد خليل البكرى، نقيب الأشراف.
- عبد الله الشرقاوى، رئيس الديوان.
- محمد المهدى، سكرتير الديوان.
- على أغا المدچيدلى، عضو الديوان.
- السيد أحمد المحروقى، عضو الديوان.
- يوسف فرحات، عضو الديوان.
- بوضيف، عضو الديوان.
- چورچ نصار، عضو الديوان.
- ذو الفقار أغا، مفوض الديوان.
- يوسف الشبرخيتى، عضو الديوان.
- ميخائيل كحيل، عضو الديوان.
- لطف الله المسيرى، عضو الديوان
- فولمار، عضو الديوان.

الوثيقة (٤٣)

رقم ٤

من ديوان القاهرة المحروسة إلى قائد عام الجيوش الفرنسية، الذى أنعم الله عليه بذكاء لا حدود له، وبآلاف الصفات الرائعة الأخرى. (عسى الله أن يحفظه للضعفاء والمساكين، الحكيم العادل، وعسى أن يشمله دائما بحمايته).

بعد دعوات لا تنتهى نقدمها لمجدك، وسلامتك، وعودتك المرجوة بيننا، وبعد تحياتنا، يشرفنا أن نحيطكم علما أننا استلمنا خطابكم النبيل، الذى يحوى تقريرا عن الأحداث التى جرت أثناء استيلاء قوات الجمهورية الفرنسية على يافا، والهزيمة والمهانة التى لحقت بأعدائكم.

لقد كان من الأفضل لهم ألا يقاوموا أوامركم العليا، وأن يتخلوا إلى الأبد عن تكتيكات المكر والخداع التى قادتهم إلى الهلاك؛ ولكن عندما تفرض عدالة السماء نفسها، تعمى أعظم الأبصار حدة. لا القوة، ولا براعة الخدع الحربية، يمكنهما أن يمنعا وقوع القدر.

نحن نسخنا وطبعنا تقريركم عن هذه الأحداث، وأكدنا لشعب مصر، أنه إذا قدر للجزار الوحشى أن يحضر لمصر، لما كان قد ترك أى إنسان، دون تفرقة بين الطيب والخبيث، والطغيان الذى فرضه على الجماهير السورية مؤشر كاف.

ذكرناهم أن هذا الوحش هو من سلالة المماليك، ومدين لهم بمركزه، ومن أولئك الذين قام الله - العليم بما فى الصدور - بالتخلى عنهم.

لهذا السبب قامت جماهير مصر بتمجيد - بعد الله - كبار قضاتهم الذين قابلوكم فى الجيزة عند وصولكم الميمون، وحصلوا منكم على حمايتكم الرفيعة، وأفضالكم التى غمرتهم بها. إنهم يشكرون الله الذى لم يجعلهم يثورون عليكم ويعصونكم - كما فعل أهل يافا - لأن شعب مصر - دون نزاع - هم أفضل عباد الله.

نشرنا هذه التقارير، التى تشهد برحمتكم وصلاحكم.

استقبلنا الأعلام التى استوليتم عليها فى يافا استقبالا حافلا. جميع الأعيان، والعلماء، والتجار، وسكان القاهرة، كانوا هناك، وكان اليوم يوم مرح جماهيرى. حملنا الأعلام بفخر إلى الجامع الأزهر، ورفعناها على المنصات والأبواب. لو أن أهل يافا تصرفوا مثلنا لكانوا قد قابلوا كرمكم، ولكن الله أراد عقاب قوم ظالمين، وهو يفعل ما يشاء الويل لمن يعصاه.

إن رغبتم فى التعرف على مدينتنا المفضلة، فهى تتمتع بسعادة غامرة وثقة وولاء القائد الچنرال دوجوا، ومدير عام الشئون المالية، والعلماء، والتجار، والسكان يعيشون أسعد أيام التفاهم، متحررين من المخاوف والفظائع، لا ينقصهم إلا وجودكم المحبوب بينهم، لا يكفون عن التضرع إلى الله أن يعيدكم إليهم سريعا، متوجا بالمجد والنجاح.

نحن نقدم آلاف التحيات للچنرال الكساندر بيرثيير، الذى نعرف جيدا حسناته ومواهبه الرائعة، وإلى صديق الفقراء الرؤوف، المثقف، والمفسر الرئيسى، ڤينتور؛ وإلى ابننا إلياس (عسى الله أن يحميهم جميعا بشفاعة ابن العباس)؛ وإلى ابنكم وتلميذكم العزيز عليكم مثل أجفان العيون، ابنكم يوجين؛ وإلى صرافكم العام، إستيف، المعروف بإخلاصه فى خدمتنا؛ وأيضا إلى أمين الأسرار، سكرتيركم يووببين، الملىء بأسمى الصفات، عسى الله أن يحفظهم جميعا ويمنحهم السلام.

نحن نأخذ الحرية، رغم أن ذلك قد لا يكون ضروريا، بأن نلتمس إحسانكم، إلى شعوب مصر وسوريا الفقيرة، التى أظهرت فعلا اهتماما كبيرا بها. عسى الله أن يحفظكم لنا، ويعيدكم إلينا، تحت ظلال حمايته، وبشفاعة الرسول ﷺ.

- السيد خليل البكرى، نقيب الأشراف.
- محمد المهدى، سكرتير الديوان.
- عبد الله الشرقاوى، رئيس الديوان.
- ذو الفقار أغا، مفوض الديوان.
- على أغا المدچيدلى، عضو الديوان.
- يوسف الشبرخيتى، عضو الديوان
- أحمد المحروقى، عضو الديوان.
- ميخائيل كحيل، عضو الديوان.
- يوسف فرحات، عضو الديوان.
- لطف الله المسيرى، عضو الديوان
- باديف، عضو الديوان.
- ڤولمار، عضو الديوان.
- چورچ نصار، عضو الديوان.

الوثيقة (٤٤)

رقم ٥

من الشريف غالب بن شريف مكة المكرمة، إلى دعامة الأعمدة الجبارة للإمبراطورية الفرنسية، الموهبة الرفيعة، صديقنا بوناپارت، القائد العام للجيوش الفرنسية، الذى تشعُّ منه جميع صفات الصلاح والشهامة.

بعد الدعوات التى لا نتوقف عن ترديدها لنجاحك، يشرفنا أن نحيطكم علمًا أننا تسلمنا رسالتكم النبيلة الموجهة إلينا، وأننا فهمنا جميع محتوياتها.

لقد عرفنا الرسوم التى سوف تفرض فى مصر على السلع التجارية التى تأتى إليها عبر البحر الأحمر، وعرفنا كذلك البند الذى تكرمت فيه بمنحنا حرية إدخال ٥٠٠ مندف قطن(*)، واستثناؤكم المشرف لنا هو برهان آخر على ثقتكم بصداقتنا، التى سوف نُثبتها لكم بإخلاص شديد.

تلبية لرغبتكم، أرسلنا وسائل آمنة، الخطابات الثلاثة التى ائتمنتنا عليها - الأول إلى صاحب تيپو، والثانى إلى إمام مسقط، والثالث إلى القائم بأعمالكم فى موتشا، ولدينا ما يجعلنا نتوقع أنكم، إن شاء الله، سوف تتلقون إجاباتهم قريبا.

(*) هى خشبة النداف - الضارب - التى يندف - يضرب - بها القطن.

نحن نريد أن نفعل كل ما نستطيع لتشجيع العلاقات التجارية مع مصر ، وأن نعطى التجار انطباعا بالإيمان والثقة المطلقة فى كلماتكم ، وفى الصداقة وحسن التفاهم الموجودين بيننا ، واللذين نرجو الله ألا يتعثرا أبدا .

عودة مبعوثنا إليكم (وصل هنا فى اليوم السابع من الشهر) أزال جميع الشكوك التى غذتها الشائعات الزائفة الكاذبة ، التى انتشرت بين التجار فى هذه الدولة ، عن مخاطر أعمال التجارة مع مصر . خاصة خطاب وزيركم المختار والاهتمامات التى منحها لمواطنينا ، وعنايته بسلامة نقل سلعهم التجارية كان لها تأثير كبير على التجار ، فقاموا فورا بإرسال خمس سفن ، محملة جزئيا بسلع خاصة بنا ، كما سوف ترى من البيانات المرفقة .

نحن نرجوكم أن تشملوا هذه البضائع بحمايتكم ، وأن تحرسها قواتكم من السويس إلى القاهرة ، وأن تأمروا بالإشراف على تكاليف النقل التى يفرضها العرب ، حتى تميل سلامة وأرباح العملية إلى تعزيز علاقتنا التجارية . يمكنكم أن تعتمدوا على معاملة المثل من جانبنا تجاه كل ما تتطلبه منا ، عسى الله أن يعزز دائما مواقفكم الطيبة تجاهنا ، وعسى أن يرعى الله سلامتكم على مر الأيام .

حاشية ـ مرفق لكم بيان بالأموال التى اعتادت مصر أن ترسلها إلينا أثناء أيام الحج .

(يوم ٢٣ ، ذو القعدة ، ١٢١٣هـ ، الموافق يوم ٩ ، فلوريال ، السنة السابعة ، بالتقويم الثورى) .

الوثيقة (٤٥)

رقم ٦

(مطبوع هنا خاتم السلطان)

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على آخر المرسلين .

من سلطان دارفور، جوهرة أمراء المسلمين، خليفة رسول الله رب العالمين، مثال العدالة والتقوى، خادم المدينتين المقدستين، عبد الرحمن الرشيد، حماه الله دائما؛ إلى سلطان الجيوش الفرنسية، ألف تحية وسلام.

يشرفنا أن نحيطكم علما بأن كلمة عن انتصاراتكم قد وصلتنا، وسررنا بمعرفة نصركم على المماليك. أوروبيّا تحول إلى الإسلام أخبرنا بالكيفية التى تحسن بها معاملة الأجانب، وقمنا بإرسال هذا المرسوم إلى القافلة التى يقودها إنصاف الجلابى، المكلف بأن يؤكد لكم صداقتنا التى إن شاء الله سوف تستمر. نحن نوصيكم به خيرا؛ لكى تعطيه حماية خاصة، هو وحاشيته وعبيده. نحن نقدم لكم ألف تحية وسلام، رمزا للصداقة.

الوثيقة (٤٦)

رقم ٧

القاهرة، ٩ ميسيدور، السنة السابعة

من الديوان، إلى القائد العام بوناپارت.

استلم الديوان رسالتكم التى تخبرونه بها أنكم طردتم ابن القاضى - بسبب سوء سلوك والده - وأمركم له أن يختار ويقدم رجلا لكى يحل مكانه. أجرى اقتراع بين أربعة رجال متنافسين، وحصل الشيخ أحمد العريشى على أكثر الأصوات. تم هذا تلبية لرغباتكم، وتنفيذا لأوامركم؛ ولكن يجب علينا أن نحيطكم علما أن الشيخ السادات، والشيخ الأمير، والشيخ الهريسى، والشيخ الدسوقى، والشيخ الغورى، والشيخ السرسى، والشيخ العريشى، والشيخ العنانى، وكثيرين غيرهم من أعيان المدينة الذين كانوا فى الديوان، يتشفعون إليكم جميعا مع أعضاء الديوان ويلتمسون عطفكم على ابن القاضى، الذى كان عادلا ومستقيما؛ والذى لم يكن له، بنعمة من الله، أى شأن بثورة والده، لا بالمراسلة، ولا بأى وسيلة أخرى، والذى كان دائما يخالف ويعارض بشدة تحالف والده مع أمير الحج، والذى كان،

علاوة على ذلك، شخصية ضعيفة وغير ناضجة. عندما حضر لمقابلتكم، استقبلته بالترحاب وطمأنته على نفسه، وعاد إلى بيته شاكرا عطفكم.

الناس أصبحوا يخافون على دينهم بسبب طرد قاض مسلم، دون أن يرتكب أى خطيئة، وبعد أن منحته الأمان عندما قدم إليكم. أمر يعرفه الجميع. بجانب ذلك لديه أم وجدة وأخت يبكين على مصيره، كن رؤوفا، وأعده إليهن، وكن رحيما بالناس بإزالة أى موضوع يثير الشكوى؛ لأننا نفضل أن يحبك جميع الناس، وهذا ممكن إذا ما اطمأنوا على دينهم بعيدا عن الفتنة، وتحت حمايتكم؛ وهذا الشعب لن يطمئن على دينه بعد طرد قاضيهم. إذا ما أعطيتهم كل يوم قاضيا جديدا، لن تستطيع أن تخلصهم من الخوف والريبة.

كن رؤوفا بأعضاء الديوان، وتقبل شفاعتهم، حتى لا يصيبهم ضرر من غضب الجمهور، نحن لذلك نلتمس رحمتك ومغفرتك أن تعفو عن ابن القاضى، وأن تسكنه بالأزبكية فى بيت الديوان، هو ووالدته وجدته وأخته؛ وسوف يكون أعضاء الديوان مسئولين عنه، وسوف يدير العدالة فى ديوانكم تحت الحراسة. من واجبنا أن نحيطكم علما بما يتوافق مع معنويات المدينة ويرضى الناس؛ نحن نعرف قدر حبكم للمسلمين، وتبجيلكم للقرآن، واحترامكم للرسول ﷺ كن دائما محبوبا؛ أيها الرجل العظيم، واقبل تحياتنا.

الوثيقة (٤٧)

خطاب من أعضاء ديوان القاهرة

إلى الچنرال بوناپارت

القنصل الأول لجمهورية فرنسا

(النص العربى التالى للخطاب، شهد على صحته القائد الأعلى لجيش الشرق، عبد الله. مينو).

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلاة وسلاما على خير المرسلين.

من علماء القاهرة، وشيوخ المساجد الكبرى، والأمراء، وكبار شيوخ الديوان الخاص لمدينة العاصمة، تحرسهم السماء وتحميهم.

إلى رفيع المنزلة، عظيم الروعة، شديد العظمة، شديد القوة، الجنرال بوناپارت، السيد العظيم الاحترام الذى تعرف جميع الشعوب حكمته، وتتركز عليه اهتمامات جميع بنى الإنسان، الأول بين الأبطال، رئيس الحكومة، والمحور الذى تتعلق به جميع مصالح الجمهورية الفرنسية.

اختاره الله من بين جميع خلق الله، وأغدق عليه المواهب؛ ومنحه القدرة والقوة، ونصره فى جميع المواقف، بسبب سلامة نيته تجاه صالح جميع البشر، وحكمة تدبيره اللتين تنظمان جميع أعماله.

ندعو الله أن يتلطف ويستخدمه دائما لنشر السعادة الإنسانية، وأن يجعله مصدرا للسعادة على سطح الأرض؛ لكى يشرف هذا القرن؛ لأن الله يحب الصالحين.

نرجو الله العلى أن يحفظه من كل سوء، وأن يحقق من خلاله السلام والسعادة لكل العالم، وأن يمنحه نعمة النجاح فى كل ما يتمناه لجمهورية فرنسا ولمصر، وألا يحرمه من النعم التى أغدقها عليه، بحق محمد، أعظم الأنبياء؛ آمين.

لدينا اشتياق عظيم لكى نراكم ثانية؛ لكى نسعد بتأمل صفاتكم السامية، الرائعة، أيها الأمير الكريم، من كان صلاحه وفضائله زينة الدنيا. لقد وعدتنا مرارا، وقلوبنا تخفق بالسعادة لتأكيداتكم أن أنظاركم سوف تتجه دائما إلى هذه الدولة. نحن نعتمد تماما على كلمتكم.

الله لا يخلف وعوده، وما يؤكد ثقتنا هو معرفتنا أن الله يريد منكم أن تنفذ جميع ما قلته. لذلك نحن ننتظر تنفيذ وعودكم؛ لأن الله ملك الملوك، القادر، إذا أراد شيئا، لا يستطيع أحد أن يقاوم قدرته أو يوقف تحقيق إرادته.

لقد أخضعتم جزءا من الأرض؛ وجميع الدول التى لم تمتد إليها ذراعك القوية

بعد، أصبحت خائفة. **مصر شهدت ونشرت إنجازاتكم الساحرة. الشعوب المجاورة أرسلت وفودا لكى تراكم، ولكى تدرس عن قرب إنجازاتكم الباسلة؛ جميع المناطق من الشرق إلى أقصى حدود الأرض أتت لكى تعرف دون أى ريب، أن الله قدر لكم الغزو بدون حدود. طوبى لمن يستسلمون لكم عن طيب خاطر! والويل لمن يقاتلونكم.**

ومع ذلك حكمتكم وعطفكم يفوقان قوتكم وشهرتكم. أنتم تضيفون إلى هذه العظمة التى تثير الاحترام، عطفا ولينا يثيران البهجة والإعجاب. **جميع سكان مصر: الأمراء والأعيان، إخواننا وأصدقاؤنا العزيزة علينا مصالحهم، والتجار والحرفيون فى المدن والثغور، والأدباء، ورجال العلوم، والعمال، والمزارعون، والنساء اللائى منحهن الله شرف اللجوء إلى حماية أياديكم القوية القادرة، والتعساء والمحرومون جميعهم - صغارا وكبارا، أغنياء وفقراء - يتحدثون جميعا معكم من خلالنا، طلبوا منا أن نعبر لكم عن احترامهم؛ لأننا نشاركهم لغة مشتركة، أنتم أنفسكم أثناء وجودكم بيننا، اخترتمونا كوسطاء بينكم وبينهم. لذلك نحن جميعا نوجه من أجلكم نفس دعواتنا إلى الله، نحن نسأل الله فى عليائه أن يمنحكم دائما النصر على أعدائكم، وألا تتوقف عن فعل الخير، وأن تستمر فى حب وإعانة الفقراء، وأن تحترم وتدعم ديننا الرائع؛ لأنك فعلا قدمت أفضل مثال لاحترام ورعاية نسائنا، وهو ما نعتبره بعد الدين أثمن شىء فى الوجود؛ عسى الله أن يرعى من يعملون صالحا.**

عندما قمتم بغزو مصر، رغم قوتكم وقدرتكم الفائقة، تعاملتم معنا كما لو كنا نحن الذين اخترناكم لكى تحكمونا، لذلك قضى الله بذلك وقدر، ولا راد لإرادة الله. **نحن نشكركم ونشكر الله، لقد قمتم أيضا بمنع النكبات التى كان يمكن لها أن تصيبنا، وعاقبتم من قام أثناء فترات الاضطراب بارتكاب الآثام الفرنسيون لا يرضون عن الجريمة، ولا يميلون إلى ارتكاب الإثم، وطباعهم تمنعهم من ارتكاب المظالم. هذه ثمار مثالكم الطيب؛ طهارة مثلهم الأعلى، هى مصدر صلاحهم. الرسول محمد قال فى هذا الموضوع: «المرء على دين خليه». بالنسبة لكم،**

فضائلكم تنبع من إرادة الله، طبقا لشريعتنا «الفضيلة في يد الله». كل شيء يخضع لإرادة الله، وما يشاء الله يحدث دون جدل طبقا لما قدره. نحن نأمل أن تعود إلى هذه الدولة سليما معافى.

لقد ظهرت بيننا كبريق ضوء يشع في أيادي الواحد القهار، وكالضوء اختفيت في نفس اللحظة تقريبا. أحطنا علما أنكم استدعيتم لمهمة أخرى، وأسرعتم إلى هناك لكي تحققوا انتصارات أخرى بمعونة من الله، الذي تعتمدون دائما على معونته.

أصدقاؤنا الفرنسيون، تسرنا سعادتهم تماما كما تسرهم سعادتنا، غمرونا بالسعادة عندما أخبرونا أنكم قد حققتم نصرا عظيما؛ وأنكم قد عبرتم الجبال بقواتكم ومعداتكم الحربية؛ وأن سرعة تقدمكم لم تعط لأي إنسان فرصة ليسترد أنفاسه؛ وأنكم أنفسكم انضممتم إليهم عندما كان حضوركم ضروريا لتحقيق الانتصار؛ وأنكم كنتم ترتدون معطف الإلهامات السماوية؛ وأن بشير النصر أعلن انتصاركم؛ وأن نعم السماء كانت تحيط بكم دائما؛ وأن الحماية الإلهية صحبتكم في كل خطوة. لذلك كنت منتصرا، نحن نحمد الله على نجاحاتكم، **«وقد أطلقنا عليكم اسم «سيف الله» الذي يضرب أعداءكم وكل من يعارضكم. اليوم نحن نؤكد لكم بإخلاص تام، وصراحة جديرة بثقتكم، أن الفرنسيين والمصريين قد أصبحوا شعبا واحدا متحدا بصداقة مخلصة قوية»**. هذه الوحدة تتزايد قوتها باطراد، يوما بعد يوم، بفضل جهود صديقنا المبجل، عبد الله مينو، البارز بين الرجال، الذي جعلته حكمته ومشاعره النبيلة مميزا بين كل من جيله. نحن نتضرع إلى الله أن يرعاه، وأن يجزيه خير جزاء على رحمة وحكمة إدارته.

مثالياتكم، وتعاليمكم دائمة الحضور في قلبه، حيث يحافظ عليها بعناية. هو يعتنق ويقدس ديانتنا المقدسة الرائعة، هو يكره الظلم والخداع، هو يحترم رسولنا، ونساءنا، وفقراءنا، هو يقدس القرآن والتقي والمتدين. قام بتنظيم إدارة العدالة، التي بنيت قوانينها على أساس الشريعة الإسلامية؛ أعاد بناءها على نفس الأسس

التى كان عليها زمن الأمراء الأوائل، وطبق بإخلاص وسائل خلفائنا القدامى، تكريما لسلوكهم الحسن؛ وضع لإدارة الأقاليم معايير سوف تخفف أعباء الضرائب. نحن نحمد الله الذى ألهمكم لكى تأتمنوه على حكومة هذه الدولة، وأن تضعنا تحت أيديه، وأن تعهد إليه بمسئولية مصالحنا ومصالح الفقراء، وبمهمة الحفاظ على روح الأخوة بين جميع عباد الله.

أملنا ألا تنسى أن هذه العاصمة هى مدينتكم الكبرى، مفخرة جميع المدن البارزة والشهيرة؛ وأنها المقعد الرئيسى لعظمتكم، حيث بدأتم ممارسة مواهبكم وحكمتكم؛ وأن جميع سكانها يحبونكم ويبجلونكم، وأنهم يتلهفون بشدة لعودتكم، ديننا الذى تحبه يحييك قلبه وعيونه مركزة عليكم. اليوم الذى سوف يصبح فيه شعبينا، والذى يجب أن يصبح فيه مواطنونا ومواطنوكم شعبا واحدا، أعلن فعلا للناس؛ ولا يوجد أى ريب أن هذه الوحدة سوف تتم يوما ما؛ لأن الله يريد ذلك، وكل ما يريده الله سوف يتم. وداعا.

كتب يوم الأربعاء، ٢١ برومير، السنة التاسعة من تقويم الجمهورية الفرنسية، الموافق يوم ٢٤ جمادى الآخر، ١٢١٥ هجرية. وقعه:

- صديقكم السيد خليل البكرى، رئيس الأشراف، القاهرة.
- صديقكم الفقير عبد الله الشرقاوى، رئيس الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير محمد الأمير، مفوض الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير محمد المهدى، سكرتير الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير مصطفى الصاوى، عضو الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير سليمان الفيومى، عضو الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير موسى السرسى، عضو الديوان، القاهرة.
- صديقكم الفقير عبد الرحمن الجبرتى، عضو الديوان، القاهرة.

- صديقكم الفقير على الرشيدى، عضو الديوان، القاهرة.

الرسالة عاليه كتبت فى اجتماع الأعضاء المبجلين الذين يكونون ديوان مصر وقرئت كاملة وبوضوح أمام المجلس العام يوم ٢٤ جمادى الآخر، عام ١٢١٥ هجرية. كتبت نسخ كاملة من الرسالة الأصلية، ووضعت فى أرشيف الديوان؛ لكى تحفظ هناك بصفة أبدية. سلام.

* * *

هوامش الجزء الثانى

١ ـ بالنسبة للتواريخ التى كتبت فى وقت لاحق فى شتى دول الشرق، انظر ڤيكتور شوڤين :

Memoires et publications de la Société des Scienees, des Arts et des Lettres du Hainaut .

المجموعة السادسة، الجزء الرابع، الكتاب رقم ٥٤ : La Legende de Bonaparte ص ٦٧ .

٢ـ «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» . الجبرتى .

٣ـ ڤيكتور شوڤين، لا يجب أن يندهش أحد لأننا انحرفنا هنا، ليس فقط عن الفصول المشكوك فيها، بل أيضا عن الالتزام بالشعر العربى. هذه الوثائق لا تجد مكانا فى عمل نقدى .

٤ ـ كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ـ عبد الرحمن الجبرتى ـ ص ٧٢ .

٥ ـ المرجع السابق ص ١٠٤ .

٦ ـ المرجع السابق ص ١١٢ ، ١١٣ .

٧ ـ المرجع السابق ص ١١٥ .

٨ ـ المرجع السابق ص ١٢١ .

الجزء الثالث

بوناپارت فى القاهرة طبقا لشرح ناپوليون

بونابارت فى القاهرة
طبقا لشرح ناپوليون

ملاحظة خاصة:

إذا كان كتاب «الحملات ـ Campagnes » قد كتب فى سانت هيلين. فإن ناپوليون قد فكر فى كتابته وهو فى جزيرة إلبا.

النص، فى الحقيقة، كان هو الذى اعتمده المحررون الرسميون لكتاب «مراسلات ناپوليون ـ Correspondance» .

«سوف تلاحظ، دون شك، بأى اهتمام خاص قام مؤلف «حملات إيطاليا ومصر بمفارقة تاريخية متميزة، باستخدام اسم ناپوليون بدلا من بوناپارت».

المفارقة التاريخية، فى الحقيقة، كانت متحيزة تماما. ألم تكن حول تأكيد ـ بأعظم قوة ممكنة ـ الأسباب التى قد تؤثر على فرنسيى المستقبل فى متابعة السياسة الإسلامية للجنرال بوناپارت؟ ناپوليون كان يتحدث بلغة تبدو له أنها أكثر ملاءمة لهذا الغرض.

الاختلافات الواضحة (لها طبيعة نفسية فريدة، كما يبدو) بين نص «الحملات» ونص «المراسلات» تتوافق معا ببساطة بجمع العملين معا.

الدين الإسلامى

الوثيقة (٤٨)

(مقتطفات من الحملات)

١ ـ عن دين الإسلام .

٢ ـ عن علماء جامع الأزهر .

٣ ـ الفتوى .

٤ ـ عيد وفاء النيل . عيد مولد النبى ﷺ .

٥ ـ إمام مكة .

٦ ـ عن الفنون ، والعلوم ، والآداب ، أيام الخلفاء .

٧ ـ عن تعدد الزوجات .

٨ ـ عن العادات والأخلاق .

أولا : عن دين الإسلام

موسى أوحى بوجود الله إلى قومه ؛ المسيح عيسى إلى الإمبراطورية الرومانية ؛ محمد ﷺ إلى العالم القديم . موسى أخرج ذرية يعقوب من عبوديتهم فى مصر . أبقاهم أربعين سنة فى الصحراء ، حيث أعطاهم الشرائع . اشتاقوا دون انقطاع إلى «تلك الأوانى المليئة باللحوم التى أكلوا منها كفايتهم» . لكى يقاوم رغبتهم إلى العودة ، كرس نفسه ؛ لكى يثير فيهم شخصية فريدة ، عزلتهم عن بقية الشعوب . العبريون يعرفون الله الحق ألف سنة قبل غيرهم من الناس .

المسيح عيسى ، رغم أنه من ذرية يعقوب ، لم يكن لديه طموح لعرش آبائه ،

أقسم وأمر بطاعة أى حكومة رسمية.

«القوة كلها تأتى من الله. إمبراطوريتى ليست فى هذا العالم. أعط مالقيصر لقيصر. لم يكن له غير هدف واحد فى رسالته الإلهية: أن يريح الضمائر، ويرشد النفوس فى هذه الحياة؛ لكى يحقق خلاصهم فى الحياة الأخرى. الإنجيل لم يعط إرشادات للحكومة عن أشياء فى هذه الدنيا. عقيدة المسيحيين لم تفعل شيئا؛ لكى تثير غيرة القياصرة؛ ولكن بنفس المبدأ كانت عظيمة الفائدة للسلالات الحاكمة التى نشأت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية: أعطتها الشرعية. كلوڤيس لم يصبح ملكا حقا إلا بعد مباركته [من الكنيسة].

الدين المسيحى هو دين قوم عظيمى الحضارة. إنه يرفع قدر الإنسان؛ ويعلن سمو العقل على المادة، وسمو الروح على الجسد. تغذى ونما فى الكليات الإغريقية كان انتصارا لسقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس على فلامينياس، وسيپيو، وپول-إميل. الرومان قهروا اليونان بقوة أسلحتهم، ولكنهم استسلموا دون وعى لنفوذ لا يقاوم لعقل، وفنون، وعلوم المقهورين. القوانين الرئيسية للكنيسة درست وقررت فى مؤتمرات عقدت فى الشرق خلال القرون الثمانية الأولى، فى نيقيا، والإسكندرية، وأنطاكيا، والقسطنطينية، وخالقيدون، وقيصرية وأثينا. مثل كل شىء آخر حقق ذاته بنفوذ الإقناع وحده، تقدم دين يسوع المسيح ببطء، احتاج أربعة قرون لكى يصعد إلى العرش، تمجيد قيصر وأغسطوس تلاه تمجيد أقبح الطغاة، شعرت الشعوب ببغض شديد لدين كان فيه لتايبيريوس، وكاليجولا، وهيليوجابالوس (أباطرة رومانيون) قساوسة ومذابح، وبحثوا عن السلوى فى عقيدة الإله الذى لا يموت، الذى لايُخلق، بل يخلق، العاطى، سيد كل شىء.

الكنيسة المسيحية وعدت الصالحين أنهم سوف يرون الله وجها لوجه، بهجة روحية كاملة، وفى نفس الوقت هددت الأشرار بعقاب بدنى؛ لأنهم سوف يحترقون فى نيران ملتهبة، التباين يفسر نفسه إذا هدد الأشرار بعقاب روحى، فإن ذلك قد يسعدهم ويشجعهم؛ العقاب سوف يكون بالغ الضعف ولن يكبح

أفكارهم الشريرة، من الناحية الأخرى جنة بها نماذج مختارة من الملذات الدنيوية التى تريح الجسد، والتى توصى الأخلاق المسيحية بكبحها وإبادتها.

كانت شبه الجزيرة العربية وثنية عندما قدم إليها الرسول محمد ﷺ، بعد ستة قرون من زمن يسوع المسيح، عقيدة رب إبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى. الأريون والطوائف الأخرى التى عكرت هدوء الشرق، جادلوا الموضوع مثل طبيعة الآب، والابن، والروح القدس. الرسول محمد أعلن أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، لم يكن له أب ولا ولد، وأن الثالوث المقدس يشمل مفهوما وثنيا، ركز على الموضوع الرئيسى للقرآن : **«لا إله إلا الله»**.

محمد ﷺ كان يخاطب شعوبا بربرية فقيرة وجاهلة تفتقر إلى كل شىء؛ إذا كان قد تحدث إلى عقولهم، لما كانوا قد فهموه(*). فى وسط وفرة الإغريق، كانت مباهج التأمل الروحى ضرورية؛ ولكن فى الصحراء الجرداء، حيث يتلهف العربى دائما على مصدر ماء، وعلى ظلال شجرة تحميه من أشعة الشمس الحارقة، من الأفضل أن تمنىٍّ الإنسان وتعده بأنهار حليب لا تنضب، وبساتين عَطرة يرتاحون تحت ظلالها الدائمة، وبأذرع حور الجنة ذوى البشرة البيضاء والعيون السمراء، البدو يشتاقون إلى مثل هذا الأمل الساحر، ويضحون بكل شىء لتحقيقه، ويصبحون أبطالا.

محمد ﷺ كان أميرا؛ حشد أصحابه حوله فى سنوات قليلة، قام مسلموه بغزو نصف العالم. أنقذوا من آلهتهم الزائفة أرواحا أكثر، دمروا أوثانا أكثر، وخربوا معابد وثنية أكثر فى خمس عشرة سنة مما فعله أتباع موسى وعيسى فى خمسة عشر قرنا. محمد ﷺ كان رجلا عظيما. عندما ظهر، كان العرب مزمنين فى حروب أهلية منذ زمن طويل. كل أمر عظيم قامت به الشعوب على مسرح العالم، كان نتيجة أزمات فى الروح والجسد. إذا كانت معارك القادسية وال... (**) التى سمحت للمسلمين البواسل بوضع علم النبى على حدود الصين، وإذا كانت معارك أجنادين واليرموك، التى وضعت سوريا ومصر تحت سيطرتهم،

(*) تحدث محمد ﷺ للعقول والقلوب، ولكن بحكمة نادرة - پيدكوك.
(**) سقط الاسم من المخطوطة.

قد تحولت ضدهم؛ إذا كان خالد وضرار، وعمرو قد هُزموا، وطردوا إلى الصحارى الشاسعة ,لكان العرب قد عادوا إلى حياتهم البدوية، وعاشوا مثل آبائهم، فقراء وتعساء؛ لما كانت أسماء محمد، وعلى، وعمر قد أصبحت معروفة فى العالم.

تصاعد المسيحية المطرد، من الناحية الأخرى، لم يعتمد على نجاح أية مسألة ثانوية. انتشر الدين تدريجيا وتلقائيا باعتباره عقيدة تُقنع وتأسر، لا يستطيع أى شىء أن يوقف تقدمه.

قسطنطين عجل بانتصاره. يسوع المسيح كان واعظا، أعطى حوارييه نعمة الكلمة. موسى ومحمد كانا قائدين للشعوب، وضعا القوانين، ونظما شئون هذه الدنيا. قال محمد ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»(*)، «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»(**).

كان غير متسامح (***). قتل غير المؤمنين أو إخضاعهم للجزية، وتدميره قوة الوثنية لأنها إساءة لله، كتبت فى جميع صفحات القرآن. لن يستطيع المسلمون أبدا أن يستسلموا بإخلاص لأى أمير وثنى.

ثانيا: عن علماء جامع الأزهر

الأديان الثلاثة التى نشرت معرفة الله الواحد الأحد الذى خلق الإنسان، جاءت من شبه الجزيرة العربية ـ موسى، ويسوع المسيح، ومحمد، وهم عرب وُلدوا بالتتابع فى ممفيس، والناصرة، ومكة. أوروبا، وأسيا، وأفريقيا، وأمريكا، التى تشمل الكثير من البرارى الشاسعة، والجبال العالية، والبحار الكبيرة، والوديان الغنية، والمدن الضخمة، تتبع موسى، ويسوع المسيح. أو محمد، وكيفت حياتها طبقا للكتب المقدسة، الإنجيل، أو القرآن، وحولت أنظارها إلى البلاد العربية، تجاه القدس، والناصرة، ومكة. إذا كانت روما قد أصبحت مركزا للمسيحية، فإن ذلك يرجع إلى سيپيو، وقيصر، وتروجان (أباطرة الرومان) الذين غزوا جزءاً

(*) مسلم فى: الجهاد [٢٠ / ١٧٤٢].
(**) مسلم فى: الإمارة [١١٩/ ١٨٨٦]، وأحمد [٢ / ٢٢٠].
(***) فى عبادة الأوثان.

من العـالـم . نفـوذ رومـا الحديثة ينبثق مـن قـوة رومـا القـديمـة . ولكن لماذا كـانت القدس، والناصرة ، ومكة تنتمى إلى نفس المنطقة؟

فى جميع الأزمات ، كانت الأفكار الدينية تسود بين قدماء المصريين . الفرس لم يستطيعوا أبدًا أن يستقروا فى مصر ؛ لأن المجوس أرادوا عبادة آلهتهم هم واستبعاد آلهة النيل .

برز بين الشعـبين تنافس على الأوثان، والشعـائر، والكهنة، جـعلهم أعـداء عنيدين يستحيل تصالحهم معا . كثيرًا ما قامت جيوش الفرس بغزو مصر، وكان المصريون يثورون عليهم دائما . عندما وصل الإسكندر الأكبر إلى حدود مصر، هرول المصريـون إليه، ورحبوا بهذا الرجل العظيم باعتباره محررا لهم . عندما عبر الصحراء، بمسيرة خمسة عشر يوما ، من الإسكندرية إلى معبد أمون، وأعلن نفسه ابنًا لچوپيتر، كان يعرف عقول هؤلاء الناس؛ لاطف أعرافهم السائدة؛ وبذلك عزز غزوه بأكثر مما يفعله بناء عشرين موقعا حصينا، وتجنيد مائة ألف مقدونى .

الدپلومـاسيون الذى أحسنوا مراقبة روح شعب مصر، اعتبـروا أن الدين هو العقبة الرئيسية لاستقرار السلطة الفرنسية . «لكى يستقر الإنسان فى مصر»، قال ڤولنلى عـام ١٧٨٨ : «يجب عليه أن يتـحمل ثلاث معـارك؛ الأولى ضـد إنجلترا، والثـانية ضـد البـاب العـالى، ولكن الثـالثة ، الأكثر صعوبة ضـد المسلمين الذين يشكلون سكان هذه الدولة . هذه المعركة الأخيرة سوف تسبب خسائر كثيرة، وربما يجب اعتبارها عقبة يستحيل تجاوزها» .

سيطروا على الإسكندرية والقاهرة، وانتصروا فى شبراخيت والأهرامات، ومازال موقف الفرنسيين غير مستقر . لم يتحملهم المؤمنون الذين بعد أن أذهلتهم سرعةالأحداث ، استسلموا للقوة، ولكنهم كانوا يستنكرون علنا نصر الوثنيين الذين كـان حضورهم يدنس المياه الطاهرة . كـانوا يئنون ألما من العار الذى سوف ينزل على المفتاح الأول للكعبة المكرمة، وكان أئمة المساجد يصرون على تلاوة آيات القرآن التى تعارض غير المؤمنين بشدة .

كـان من الضـرورى إيقـاف تقـدم هذه الأفكار الدينيـة ، وإلا تعـرض الجـيش الفرنسى للخطر ، رغـم انتصاراته . لقد أضعفت ، وأثبطت همته ، وأصبح غير قادر على احتـمال هذه الحرب الدينية . فى القـرنين الحـادى عشر والثـانى عـشر كـان الصليبيون يسيطرون على أنطاكيا والقدس ، وغـيرهما من المدن ، ولكنهم كانوا متعصبين مثل المسلمين . سجلات تاريخ العالم لا تقدم لنا أمثلة لمثل الجهد الذى بذلته أوروپا حينذاك . ملايين عديدة من الأوروپيين ماتوا فى ميادين سوريا ، ومع ذلك بعد بعض الانتصارات سريعة الزوال ، هُزم الصليب ، وانتصر المسلمون .

نبـوءة ڤـولتـلى ، كـانت سـوف تتـحـقق ، يجب على الإنسـان أن يهـدئ الأفكار الدينية ، وأن يتجنب لعنات النبى ، وألا يسمح لنفسه أن يوضع فى صفوف أعداء الدين الإسلامى ؛ يجب على الإنسان أن يقنع وأن يكتسب ود الشيوخ ، والعلماء ، والأشراف ، والأئمة ؛ لكى يقوموا بتفسير القرآن لصالح الجيش . (*)

مدرسة جامع الأزهر هى الأكثر شهرة فى الشرق . أنشأها صلاح الدين ، ستون أستاذا أو عالما يدرسون مختلف الموضوعات التى تتعلق بالدين ، ويفسرون الكتب المقدسة ، هذه المدرسة وحدها هى التى كانت تستطيع أن تقدم مثالا ، وتنور الرأى العـام للشرق وللطوائف الأربع التى تشكله ، هذه الطوائف الأربع ، الشـافعـيـة ، والمالكية ، والحنبلية ، والحنفية ، كانت تختلف عن بعضها فقط فى نقاط انضباط السلوك ، كان لكل منها فى القاهرة ، مفتيا يقودها . لم يوقف ناپوليون أى شىء عن تطويقهم ومداهنتهم . كـانوا رجالا مسنين ، محترمين لحسن أخلاقهم ، وعلمهم ، وثرائهم ، وأيضـا لنسبهم ، كل يوم عند الفجر تعودوا هم وعلمـاء جامع الأزهر ، على الذهاب إلى القصر قبل وقت الصلاة . حاشياتهم كانت تغلق ميدان الأزبكية كله كـانوا يجيئون على بغالهم المطقمة بثراء ، يحيط بهم خدمهم وعدد كبير من حملة الهراوات . رجال الحراسة الفرنسيون يحملون السلاح ويعاملونهم بإجلال ، عند دخـولهم إلى غـرف الاستقبال ، يقـابلهم المساعدون والمترجمون باحترام

(*) نكرر هنا ، ناپوليون (المسيحى) يبرر بوناپارت (المسلم) فى عيون أوروپا المسيحية - پيدكوك .

ويقدمون لهم القهوة والشراب المثلج، بعد لحظات قليلة، يدخل الچنرال ويجلس بينهم، ويحاول أن يكتسب ثقتهم بنقاش حول القرآن، ويطلب منهم تفسير آياته الرئيسية، ويظهر لهم إعجابه الشديد بالنبى. بعد رحيله يذهبون إلى الجوامع حيث يحتشد الناس، وهناك يتحدثون إليهم عن آمالهم، ويهدئون شكوكهم ومخاوفهم، وهم يقدمون بذلك خدمة جليلة للجيش الفرنسى.

الإدارة الفرنسية احترمت ممتلكات الجوامع والمؤسسات الخيرية، وحافظت عليها بحياد لا يمكن أن يكون إلا نتيجة ميول صادقة من القائد تجاه دين المسلمين.

المبدأ الرئيسى لسياسة الأتراك والمماليك كان هو إبعاد الشيوخ عن إدارة العدل والحكومة؛ كانوا يخشون أن تصبح لهم سلطة قوية. بالنسبة لأولئك الرجال المسنين المحترمين، كانت مفاجأة طيبة لهم عندما وجدوا أنفسهم يتولون مسئولية القضاء المدنى والجنائى، ويتولون أيضا إدارة جميع شئون الدولة الخاصة بالمنازعات. ازدادت مصداقيتهم سريعا بين الناس، فى أقل من شهر بعد دخول الجيش الفرنسى إلى القاهرة، تغيرت فعلا أوضاع الشيوخ. أصبحوا موالين مخلصين للسلطان الكبير، هم أنفسهم كانوا يندهشون أن انتصار غير المؤمنين الذى كانوا يخشونه كثيرا أكد نصرهم هم، لقد كان لصالحهم أن انتصر الفرنسيون عند الأهرامات! جميع قراهم، وجميع ممتلكاتهم الخاصة، حوفظ عليها بعناية فائقة. لم يتلق أبدا هؤلاء الرجال الذين كانوا أيضا قادة للدين ونبلاء ورجال عدل، مثل هذا الاهتمام، ولم يحظوا أبدا بمثل هذه الحماية، ليس فقط من المسلمين، بل أيضا من المسيحيين، والأقباط، واليونانيين، والأرمن الذين يقيمون فى هذه الدولة. هؤلاء الأخيرون انتهزوا فرصة دخول الجيش ليتخلصوا من قيودهم السابقة، ويواجهوا المسلمين؛ وفور أن علم القائد العام بذلك، قام بتأديبهم. أعاد النظام العام. أعاد الممارسات السابقة فى جميع الشئون، إلى ما كانت عليه، وأسعد بذلك المسلمين، واكتسب ثقتهم.

منذ الثورة، لم يؤمن الجيش الفرنسى بتعاليم أى دين. لم يذهب إلى الكنائس فى إيطاليا، ولا فى مصر أيضا، هذه الحقيقة لم تغب عن أنظار العلماء الحادة التى

تغار على دعوتهم وتراقب أى شىءيتعلق بها . كان لهذه الحقيقة أفضل تأثير عليهم إن لم يكن الفرنسيون من المسلمين، فهم يرون على الأقل أنهم ليسوا من الوثنيين. من الواضح أن السلطان الكبير(*) كان تحت رعاية وحماية الرسول ﷺ ، من خلال هذا النوع من الغرور الشائع بين جميع الرجال، أسعد الشيوخ أن يعتبروا أن ذلك كان سبب كل هذه الرعاية التى أعطيت لهم والاحترامات التى أغدقت عليهم وعلى كل ماكانوا يقولونه. محاباتهم لناپوليون كانت واضحة وأصبحت فعلا بندا من إيمانهم، « إن الفرنسيين ماكانوا يستطيعون أبدا أن ينتصروا على المؤمنين مالم يكن قائدهم يتمتع بحماية خاصة من النبى، جيش المماليك كان جيشا لايقهر وكان أشجع جيش فى الشرق ،وإذا كان لم يستطع أى مقاومة، فقد كان ذلك لأنهم غير أتقياء وكانوا ظالمين. هذه الثورة العظمى كتبت فى بعض آيات القرآن»

فى وقت لاحق، لامس السلطان الكبير حبل الوطنية العربية لماذا استسلم الشعب العربى للأتراك ؟ لماذا تستسلم مصر الخصيبة والسعودية المقدسة لسيطرة قوم من القوقاز؟ لو نزل الرسول محمد ﷺ من السماوات إلى الأرض إلى أين يذهب؟ هل يذهب إلى مكة؟ لن يكون هناك فى مركز الإمبراطورية الإسلامية. هل يذهب إلى القسطنطينية؟ ولكنها مدينة دنيوية دنسة، عدد الكفار فيها يزيد على عدد المؤمنين بذلك سوف يصنع نفسه وسط أعدائه، كلا هو سوف يفضل مياه النيل المباركة، سوف يأتى ليسكن فى جامع الأزهر أول مفتاح إلى الكعبة المكرمة».

عندما سمعوا هذه الكلمات، أشرقت وجوه الرجال المسنين المبجلين، وأحنوا أجسامهم وضموا أذرعهم إلى صدورهم وقالوا: طيب، طيب، هذا صحيح تمامًا!

بعد أن هزم مراد بك قال لهم ناپوليون: إنى أريد إعادة إحياء الأمة العربية، من ذا الذى سوف يمنعنى؟ أنا دمرت المماليك أكثر ميليشيات الشرق بسالة. بعد أن يفهم أحدنا الآخر وبعد أن يدرك المصريون الطيبات التى أريد أن أفعلها لهم، سوف ينضمون إلى بإخلاص . سوف أعيد أمجاد الفاطميين.

(*) المقصود ناپوليون، كما سماه العرب.

هذه الأقوال كانت موضوع نقاش بين كبار شخصيات القاهرة، ماشهدوه عند الأهرامات جعلهم يعتقدون أن الجيش الفرنسى قادر على كل شيء. إعجابهم شمل القائد، اعتقدوا أنه رجل القدر. الشيخ المهدى أكثرهم بلاغة وأكثرهم علما وأصغر شيوخ جامع الأزهر، كان أيضا أكثرهم ثقة بالقائد، ترجم البلاغات التى أصدرها إلى شعر عربى، حفظت الأشعار عن ظهر قلب ولازالت تتلى فى صحارى إفريقيا والبلاد العربية.

منذ أن قام العلماء بتشكيل الديوان الذى تولى مسئولية الحكم، كانوا يتلقون التقارير فى جميع الأقاليم، وكانوا على علم تام بالشغب الذى سببه سوء الفهم وافتراءات غير المخلصين، بدأ السلطان الكبير يشكو بحدة من خطب سيئة القصد يلقيها أئمة المساجد فى صلوات أيام الجمعة، ولكن التأنيب والتحذير الذين قدمهما الشيوخ لهؤلاء الأئمة المتمردين كانا عديمى الجدوى. أخيرا عندما وجد لحظة مواتية، قال ناپوليون للشيوخ العشرة الرئيسيين الذين كانوا مقربين إليه: «من الضرورى أن نضع نهاية لهذا الشغب، يجب أن أحصل على فتوى من جامع الأزهر تلزم الناس بأن يقسموا يمين الولاء».

بهتوا وشحبت وجوههم من هذا الاقتراح، ملامحهم عكست الحزن والرعب الذى فى قلوبهم، الشيخ الشرقاوى رئيس علماء جامع الأزهر أخذ دور المتحدث وقال بعد تأمل طويل: **«أنت تريد أن تنال حماية الرسول ﷺ، هو يحبك، أنت تريد أن تحشد المسلمين العرب تحت أعلامك، أنت تريد أن تحيى أمجاد الأمة العربية وأنت لست وثنيا. كن مسلما ١٠٠٫٠٠٠ مصرى، وأيضا ١٠٠٫٠٠٠ عربى سوف يأتون من شبه الجزيرة العربية من مكة والمدينة؛ ليصطفوا حولك تحت قيادتك وتنظمهم بوسائلك، سوف يغزون الشرق، وسوف تعيد أنت بناء وطن الرسول ﷺ بكل عظمته».**

فى هذه اللحظة أشرقت وجوه الشيوخ، سجدوا جميعا يتضرعون إلى حماية السماء. بدوره ذهل القائد العام، رأيه الذى لايتغير هو أن كل إنسان يجب أن يموت وهو على دينه، ولكنه أدرك سريعا أن الحديث والنقاش حول هذه الأمور له تأثير جيد.

أجابهم: توجد صعوبتان عظيمتان تعارضان تحولى أنا وجيشى إلى الإسلام، الأولى: هى الختــان، والثـانيـة: هى النبـيـذ. جنودى تعـودوا على النبـيـذ منذ طفولتهم، لن أستطيع أبدا أن أقنعهم بالتخلى عنه.

اقترح الشيخ المهدى أن يقوم شيوخ جامع الأزهر الستون بدراسة علنية عن هذا الموضوع. انتشرت الشائعات سريعا عبر جميع المساجد أن كبار الشيوخ منهمكون ليلا ونهارا فى تدريس مبادئ الشريعة للسلطان الكبير وكبار الچنرالات، وأنهم أيضا يبحثون إصدار فتوى تسهل بقدر المستطاع وقوع حدث بالغ الأهمية. ازداد احترام الذات لدى جميع المسلمين وعمتهم البهجة.

انتشرت الأنباء أن الفرنسيين معجبون بالرسول محمد ﷺ، وأن قائدهم يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأنه يتفق أن الماضى والحاضر والمستقبل، موجود فى كتاب الحكمة هذا، وأن مايعوقه عن الإسلام هو الختان وتحريم النبى ﷺ لشرب النبيذ. الأئمة ومؤذنى المساجد كانوا فى حالة إثارة رائعة لمدة أربعين يوما، ولكن هذه الإثارة كانت لصالح الفرنسيين، هم لم يعودوا الآن غير مؤمنين، وجميع ماقاله النبى ﷺ لم يعد ينطبق على الغزاة الذين وضعوا جميع أمجادهم عند قدم عرش الإسلام.

آلاف الشائعات انتشرت بين الناس، بعضهم قال: إن النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير، وقال له: « المماليك حكموا فقط طبقا لأهوائهم وقد سلمتهم إليك. أنت تعرف وتحب القرآن، لقد منحت القوة للشيوخ والعلماء، وكل شىء لك ناجح، ولكن عليك أن تكمل مابدأته، وذلك بأن تعترف وتؤمن بمباءئ الشريعة أنها شريعة الله، والعرب ينتظرون الإشارة فقط، وأنا سوف أمنحك غزو جميع آسيا».

المناقشات والإجابات التى تنسب للسلطان الكبير تتنوع وتتوسع إلى ألف شكل مختلف، انتهز هذه الفرصة لكى يوحى أنه طلب فى إجاباته أن يمنح سنة؛ لكى

يعد جيشه الذى منحه محمد له، وأنه وعد أن يبنى جامعا كبيرًا، وأن جميع جيشه سوف يصبح مسلما، وأن الشيخين العظيمن : السادات والبكرى يعتبرانه مسلمًا.

ثالثا: الفتوى

رجال الإفتاء الأربعة وضعوا الفتوى ووقعوا عليها. قالوا فيها: إن الختان هو طهارة، وإن النبى ﷺ لم يشرعه بل أوصى به فقط، ولهذا يستطيع الإنسان أن يكون مسلما بدون ختان، أما بالنسبة للموضوع الثانى، قالت الفتوى: إن الإنسان يستطيع أن يشرب النبيذ، ويظل مسلما ولكنه فى هذه الحالة سوف يكون مذنبا، ولن يكون لديه أمل أن يحصل على الطيبات التى وعد بها الصالحون. أظهر نابوليون رضاءه عن الحل الذى وضع للموضوع الأول، وبدا أن سروره كان صادقا، وشاركه الشيوخ الكبار هذا السرور، ولكنه أبدى أسفه على الجزء الثانى من الفتوى، كيف يقنع الرجال باعتناق دين يجدون فيه أنفسهم من ا لمغضوب عليهم وفى وضع عصيان للوصايا السماوية؟

الشيوخ وافقوا على أن هذا سوف يكون أمرا صعبا وقالوا: إن العنصر الثابت فى صلواتهم سوف يكون التماس معونة رب إسماعيل. بعد نقاش طويل اختلفت فيه آراء رجال الافتاء، إذ إن بعضهم رأى عدم وجود وسيلة للتوفيق، ورأى البعض على عكس ذلك، أنه مازال موضوعا يقبل التعديل، الشيخ المهدى اقترح أن تقتصر الفتوى على نصفها الأول، هذا سوف يكون له تأثير سعيد على الدولة؛ لأنه سوف ينير الناس الذين لم يكونوا متفقين على موضوع الختان، وأن يترك الجزء الثانى من المشكلة إلى نقاش لاحق. ربما يمكنهم استشارة شيوخ وأشراف مكة، طبقت هذه التوصية. نشرت الفتوى فى جميع المساجد. الأئمة بعد صلاة الجمعة وهم يقومون كالعادة بالدعوة، شرحوا الفتوى وتحدثوا جميعا بقوة، وفى وقت واحد لصالح الجيش الفرنسى.

الجزء الثانى من الفتوى كان موضوع نقاش طويل ومراسلات مع مكة، فى النهاية مع عدم قدرتهم على تجاوز المعارضة أوتوفيق كل شىء مع النص المقدس أو السنة الصحيحة للنبى ﷺ، قام رجال الإفتاء بوضع فتوى قالوا فيها: إن من

يتحولون إلى الإسلام حديثا، يمكنهم شرب النبيذ مع بقائهم مسلمين، شريطة أن يكفروا عن هذا الإثم بالأعمال الصالحة وأعمال الإحسان، ولأن القرآن أمر بإعطاء الصدقات وأعمال الإحسان بما لا يقل عن عشر دخل الإنسان(*)، فإن أولئك الذين يستمرون فى شرب النبيذ يجب أن يلتزموا بمنح صدقات تبلغ خمس دخلهم.

قبلت هذه الفتوى، وبدت ملائمة لإرضاء كل إنسان، الشيوخ واثقون تماما، وكرسوا أنفسهم لخدمة السلطان الكبير، وأدركوا احتياجه إلى سنة على أقل تقدير لكى ينير العقول ويتجاوز المقاومة. قام هو أيضا بإعداد الرسوم الهندسية والخطط والمواصفات لبناء جامع كبير يكفى لإيواء جميع الجيش، استعدادا لليوم الذى يعتنقون فيه شريعة الله.

فى نفس هذا الوقت، اعتنق الچنرال مينو الإسلام علنا، كان يذهب إلى الجامع فى رشيد، لم يطلب أى تسهيلات. هذه الأخبار غمرت جميع سكان مصر بالبهجة ولم تترك أى ريب فى صدق الآمال التى لديهم فى كل مكان كان الشيوخ يقولون للناس: إن ناپوليون أصبح مؤمنا يحب القرآن ولديه رسالة من النبى ﷺ وأصبح خادما مخلصا للكعبة المكرمة.

ثورة الرأى هذه أنتجت ثورة أخرى داخل الإدارة. كل ماكان صعبا أصبح سهلا كل ماكان لايستطيعه الإنسان إلابقوة السلاح، أصبح يقدم إليه بطيب خاطر دون جهد، منذ تلك اللحظة أصبح الحجاج - حتى أكثرهم تعصبا - يقدمون للسلطان الكبير نفس الاحترامات التى يقدمونها لأمير مسلم، ورويداً رويداً أثناء هذه الفترة، كان القائد العام لايظهر نفسه فى المدينة دون أن يحنى المؤمنون أنفسهم احتراما له، كانوا يعاملونه كما تعودوا أن يعاملوا السلطان.

رابعا: عيد وفاء النيل

مولد النبى ﷺ

كان يوم ١٨ أغسطس عندما وصل ارتفاع مياه النيل أربعة عشر طولا عند مقياس

(*) النسبة الصحيحة هى ربع العشر، ٥ر٢٪ - المترجم.

الروضة، وقام الديوان والقاضى بكسر السور البحرى المقام على قناة أمير المؤمنين هذا الاحتفال هو أحد الاحتفالات التى يلعب فيها سكان القاهرة دورا كاملا، قبل شروق الشمس قام ٢٠٠٫٠٠٠ مشاهد بتغطية شاطئ النيل عند مصر القديمة وعند جزيرة الروضة، ووقفت عدة آلاف من الزوارق والقوارب الصغيرة تغطيها الأعلام والمظلات فى انتظار اللحظة التى تسير فيها على النيل، ووقفت فرقة من الجيش الفرنسى بأسلحتها فى استعراض منتظم. السلطان الكبير ترافقه هيئة ضباط الجيش الفرنسى ورجال الافتاء الأربعة والعلماء وكبار الشيوخ والأشراف وأعضاء الديوان وعلى يمينه الشيخ البكرى من نسل النبى محمد ﷺ (*) وعلى يساره الشيخ السادات من نسل الحسن بن على رحلوا من القصر، وساروا عبر المدينة ووصلوا إلى كشك بجوار فتحة القناة. استقبله القاضى وشيوخ المقياس.

قرئت المذكرة التى تقرر الارتفاع الذى وصلت إليه مياه النيل، وأحضرت القياسات وصدق عليها علنا. توقيع هذه المذكرة وإعلانها، حَيَّتْهُ طلقات المدافع وهتافات المرح من حشود المشاهدين، وقام القاضى بهدم السور البحرى مع الطقوس التقليدية. استغرق ساعة لإزالته.

تدفقت مياه النيل إلى القناة من ارتفاع ثمانية عشر قدما، وبعد ذلك بوقت قصير قام الزورق الذى يحمل شيخ المقياس بدخول القناة أولا، ثم تبعته بقية القوارب وظلت تدور فوق المياه طوال اليوم. الصراف العام «إستيڤ» ألقى على الحشود مبالغ طائلة من العملات الفضية الصغيرة. الطعام الذى قدم فى الكشك كان طعاما فاخرا. كرس السلطان الكبير نفسه بإخلاص للقيام بجميع المهام التى اعتاد رئيس الدولة أن يؤديها.

كان فيضان النهر هذا العام أعظم بكثير من فيضانات الأعوام السابقة، المدينة أنيرت بالكامل، وكانت فى مهرجان طوال هذه الليلة والليالى الثمان التالية، بعد وقت قليل أصبحت ميادين القاهرة العامة كالبحيرات، وأصبحت بعض شوارعها قنوات، وأصبحت حدائقها مروجا تغطيها مياه ترتوى منها الأشجار. عبر شهر

(*) أى من نسل الحسن أو الحسين - المترجم.

سبتمبر قدمت مصر كلها مشهدا شبيها بالبحر ، إذا نظر إليها من فوق الأهرامات أو من فوق جبل المقطم أو من فوق قصر صلاح الدين .

كان المشهد ساحرا . المدن والقرى والأشجار والمآذن وقباب القبور كانت تطفوا فوق فيض من المياه التى تزدحم فى كل اتجاه بآلاف من الأشرعة البيضاء لقوارب كبيرة وصغيرة تستخدم فى النقل والمواصلات وتلبية إحتياجات السكان . توقفت الجنود عن شكواهم أن النيل لايرتفع إلى مستوى شهرته ، ولم يعودوا يقولون إنه جدول مياه شارد ومجرى ماء موحل وعكر . يبلغ النيل فى أقصى ارتفاعه ٢٧ إلى ٢٨ قدمًا ، ومعظم قنواته ترتفع من ثمانية إلى إثنى عشر قدما ، ويرتفع ماؤه عن سطح الأرض من أربعة إلى ستة أقدام . فى ديسمبر يتقهقر النيل إلى داخل شواطئه وقنواته . تبدأ الأرض فى الظهور ببطء ، آلاف الفلاحين اندفعوا إلى زراعة الأرض ، غرسوا جميع أنراع الحبوب والخضروات ، وبعد أسابيع قليلة لاحقة ، تظهر أول الثمار . مشهد هذه الوديان اليانعة تغطيها المحاصيل الغنية كان فاتنا . ظن الجنود أنهم عادوا إلى إيطاليا الجميلة ، كان تباينا كبيرا مع الأرض الجرداء أثناء يونيو ويوليو منذ ستة شهور مضت .

فى آخر أغسطس من هذا العام (١٧٩٨) احتفلوا بيوم مولد النبى ، الجيش شارك السكان بهجتهم ، وأضيئت المدينة بمصابيح ملونة ، كل جامع وكل قصر وكل سوق وكل مكان أبدع فى نمط الإضاءة . قاموا بعرض لألعاب النار . الجيش فى نظام استعراضى قام بمناورات متنوعة تحت نوافذ مسكن الشيخ البكرى ، وزاره القائد العام وكبار الضباط . جميع العلماء ورجال الإفتاء كانوا هناك يجلسون على وسادات على الأرض يرتلون تواشيح مدح الرسول ﷺ ، وكبار السن المبجلين - هؤلاء - أمضوا ساعة يتلون أشعارا عربية فى مدح الرسول ، تهتز أجسادهم بحركات جماعية سريعة . فى لحظة محددة من الدعاء ، انطلقت مائة قذيفة مدفع من حصن الجيزة تحية للشعر الذى يعلن دخول محمد إلى المدينة . كان ذلك بداية الهجرة .

الطعام الذى أعده الشيخ البكرى قدم على خمسين مائدة صغيرة ، بكل منه

خمسة أماكن، فى الوسط جلس السلطان الكبير والشيخ البكرى، وفرق الموسيقى العسكرية عزفت لجميع الناس، وشاركت فى البهجة العامة. جميع ميادين المدينة ازدحمت بالناس، اصطفوا فى دوائر من ستين أو مائة رجل تتشابك أيديهم، ويرتلون تواشيح مدح الرسول، كانوا طوال الوقت يتحركون إما بالدوران يمينا ويسارا أو القفز أماما وخلفا بقوة أدت إلى سقوط عدد منهم فى إغماء.

انتشر الدراويش فى جميع هذه الدوائر، واكتسبوا إعجاب الناس واحترامهم. الحرية والمدح الشديدان اللذان قذف بهما المسلمون أنفسهم فى هذه الطقوس والانفتاح والبهجة والأخوة التى وجدت بينهم وبين الجنود، أظهرت بوضوح قدر التقارب الذى حدث بينهم.

فى يوم عطلة الجمهورية الفرنسية فى اليوم الأول من ڤنديمير، قام المسلمون عرفانا منهم بالدور الذى لعبه الجيش فى الاحتفال بوفاء النيل وبمولد النبى، بمشاركة جادة حيث شيدوا هرما فى ميدان الأزبكية، رجال الإفتاء والقضاة والعلماء وكبار الشيوخ اصطفوا حول السور الذى يحيط بقاعدة الهرم، بعد سماع بيان القائد العام والقيام ببعض المناورات، سار الجيش فى استعراض التبجيل الذى منح فى هذا الاحتفال لجميع أعضاء المجتمع البارزين، أثار أعظم ارتياح لدى عامة الناس.

القائد العام قدم الطعام لمائة ضيف، عرضت فيه العظمة التى قد يتمتع المرء بها فى باريس. فى المساء أقيمت مسابقات ومباريات من جميع الأنواع للترفيه عن الناس وعن العسكر. مشهد جديد يعطيه الفرنسيون اهتماما شديدا كان بالونا أطلقه كونتيه، انطلق واختفى فى صحراء ليبيا الكبيرة، ولم يعرف أحد أبدا أين هبط، ولم يكن فيه أى إنسان، ولكنه حمل أبيات شعر كتبت بالتركية والعربية والفرنسية، ولم يكن فيه أى شىء خلاف ذلك يثير فضول المسلمين، ولكنه و إن لم يكن قد أحدث التأثير الذى استهدفه، إلا أنه كان موضوعا لشائعات شتى. قال بعض المؤمنين: إنه كان وسيلة للمراسلة بين السلطان الكبير وبين الرسول.

الشيخ المهدى ضحك بصوت عال على هذه الشائعة الكاذبة لقوتها . نظم عنها بعض أبيات جميلة من الشعر العربى انتشرت فى جميع أنحاء الشرق .

خامسا: إمام مكة

كان الشريف غالب يحكم مكة . علماء القاهرة كتبوا إليه يخبرونه بوصول الجيش الفرنسى والحماية التى يقدمها للدين الإسلامى . أجاب كرجل يريد الإبقاء على المصالح المهمة التى له فى مصر . حاكم لأرض فقيرة ، كانت مصر تقدم لبلده القمح والشعير والخضروات ، التى تقيم أودها . مكة رغم أنها حرمت كثيرا من رخائها السابق ، كانت لاتزال تحتفظ بأجزاء منه من خلال إقامة القوافل الآتية من الشرق ومن الغرب . قوافل الشرق تتجمع فى دمشق وتأتى من هناك وقوافل الغرب تبدأ من القاهرة .

كتب الشريف إلى السلطان الكبير ، وخلع عليه لقب خادم الكعبة المكرمة الذى انتشر عبر المساجد وأنتج تأثيرا مفيدا . شريف مكة حاكم مستقل لديه قواته الخاصة ولكن جدة الميناء تنتمى إلى سلطان تركيا الذى يحتفظ بحامية له هناك ، مبعوثه هناك هو أحد الباشوات الذى أخذ حرية فرض سلطته على المدينة ذاتها .

سياسة القسطنطينية كانت ترمى إلى تقليص النفوذ الدينى لشريف مكة بقدر المستطاع . السلاطين هم خلفاء المسلمين ، ونجحوا بفاعلية فى تحييد شريف مكة . سياسة القائد الفرنسى كانت عكس ذلك ، كان يهتم بتعزيز الاحترام الدينى لهذا الأمير الصغير الذى يعتمد على مصر لتلبية احتياجاته . هذا النفوذ تضاءل كثيرا كما تضاءل نفوذ شيوخ القسطنطينية .

نابوليون لم يتسامح فقط ، بل قام بجميع الوسائل بتشجيع الاتصال بين العلماء وبين شريف مكة الذى فهم سريعا كل ماتعنيه هذه السياسة بالنسبة لمصالحه . تمنى شريف مكة أن تزداد قوة الفرنسيين فى مصر ، وكان دائما يؤيد ذلك فى جميع الأمور التى تعتمد عليه .

عين أمير أغا أميرًا للحج . هذا الاختيار أذهل جميع الناس ، ولكنه كان نتيجة

لنفوذ وجهات نظر الباب العالى. أوضح هذا الاختيار الرغبة فى أن يحتل أحد العثمانيين هذا المركز الدينى المهم. قام بتشكيل فرقة من ٦٠٠ رجل لحراسة قافلة الحجاج، وأصبح سريعا شخصية شديدة الاحترام والنفوذ.

الكسوة التى ترسلها القاهرة كل عام إلى الكعبة المكرمة مع قافلة الحجاج كانت من الحرير المزركش بتطريز ذهبى ثمين، وكانت تصنع فى جامع السلطان قلاوون صدرت الأوامر أن تصنع هذه الكسوة بجودة أكثر وأن تزين بتطريزات أكثر من العادة.

الضباط المهندسون الذين يقومون بتشييد التحصينات، قلبوا بعض القبور انتشرت الأخبار وسببت غضبا شديدا. حوالى الساعة السادسة مساء، تدفقت حشود الناس إلى ميدان الأزبكية، وأحدثت نوعا من الضوضاء تحت نوافذ السلطان الكبير. قام الحرس بإغلاق الحواجز وحملوا السلاح.

أطل القائد عليهم من النافذة ومعه مترجمه ڤينتور، الذى شرح له أن هذا كان استعراضا للثقة، وعادة متبعة لتقديم التماس للحاكم. نزل ڤينتور إلى الحشود، فتح الحواجز، وطمأن الحرس، وشكل وفدا من عشرين رجلا.

صعد أعضاء الوفد إلى مقر القائد. حيوهم باحترام، وعاملوهم كأنهم من كبار الشيوخ وقدمت لهم القهوة والمثلجات، وأدخلوهم بعد ذلك لمقابلة القائد العام قدموا إليه شكواهم. القبور هدمت! تصرف الفرنسيون كأنهم من الكفار أو الوثنيين، معظم أعضاء الوفد كانوا من أئمة ومؤذنى المساجد، وهم عادة شديدو التعصب، وكانوا يتحدثون بحدة.

سجلوا شكواهم واعتبروا المهندسين الفرنسيين مذنبين. صدرت الأوامر بإيقاف عملهم فورا، وأنهى الشيوخ جميع الإجراءات الرسمية المفروضة فى مثل هذه الظروف. شعر أعضاء الوفد بفخر شديد، نقلوا رضاهم إلى الحشود، ورفعتهم الحشود على الأكتاف وهم يرون مافعلوه، حيت الجماهير تقريرهم بصيحات فرح ذهبوا بعد ذلك إلى القبور التى انتهكت حرمتها. الأعمال توقفت فعلا، فخورون بنصرهم، هدأت ضمائرهم وهرولوا عبر المدينة يرتلون آيات القرآن. انتهو

بالذهاب إلى جامع الأزهر حيث قام الإمام بالدعاء للسلطان الكبير والدعاء للنبى أن يعزز مشاعره المؤيدة للإسلام.

منحت المساجد أراض كثيرة، ولكن إدارات المساجد كثيرا ما كانت تسىء استخدام دخلها. السلطان الكبير راغب فى إظهار اهتمامه بكل ما يتعلق بالدين، أكد جميع المنح والهبات المخصصة للمساجد والقبور والمنشئات الدينية، وعندما علم أن جامع الحسين يدار بطريقة سيئة، ذهب إليه بنفسه أحد الأيام فى وقت إقامة الصلاة. جميع الناس خرجوا وأحاطوا به، وأذهلهم هذا المشهد الجديد.

استُدْعى الأئمة المسئولون عن صيانة المسجد، لماذا أسأتم رعاية مسجد الله هذا؟ سألهم واَستطرد يقول: هل يهب المؤمنون صدقاتهم وأراضيهم لصالحكم أنتم وأسركم أم لصالح وخدمة الدين؟

قام فورا باختيار ستة مواطنين محليين بارزين، وأمرهم بتقديم حساب عن إنفاق أموال المسجد. أيد الرأى العام هذا الإجراء بقوة. أظهرت نتيجة الحساب أن الإداريين مسئولون عن مبالغ طائلة أعيدت، وخصصت لتجديد المسجد.

كرر نابوليون نفس الإجراءات لمساجد أخرى أسئ استخدام أموالها، عرض فى رحلاته اهتمامات مماثلة. أمر بمراجعات كثيرة، وأدى ذلك إلى إحياء أعمال إصلاح المساجد فى جميع الأنحاء. الاتهامات ضد من سلبوا أموال المساجد كانت تأتيه فى رسائل موقعة أو مجهولة المصدر، **وأظهر اهتماما كبيرا بمراجعة الحسابات وإعادة الأموال التى تخص المساجد، وهو ما أسعد الشعب كثيرا لأجل الدين؛ ولأن الناس يشعرون بالسعادة عندما يرون من ائتمن على المال العام يعيد ماكتسبه بطريقة غير شرعية.**

سادسا: عن الفنون والعلوم والأدب أيام الخلفاء

الإمبراطوريات أقصر عمرا فى آسيا عما هى عليه فى أوروبا؛ لأن آسيا تشمل صحارى شاسعة، يعيش فيها أقوام فقيرة عنيفة، ترعى عددا ضخما من الجياد، وعندما تقوم بعض الثورات بدفع هذه القبائل البربرية إلى الأراضى الخصبة، تتكفل

بإسقاط السلالات الحاكمة، وتدمير الإمبراطوريات وإنشاء دول جديدة.

المغول والتتار والأتراك أثبتوا أنهم أعداء العلوم والفنون، ولكن هذا الخزى لايمكن أن ينطبق على العرب، خاصة رسولهم. معاوية أول خلفاء بنى أمية، كان شاعرا. عفا عن أحد الأحبار؛ لأنهم التمسوا العفو عنه بأربعة أبيات جميلة من الشعر العربى. يزيد ابنه كان شاعرا أيضا.

يقدر المسلمون نوعية الأشياء كما يقدرون الشجاعة. المنصور، وهارون الرشيد والمأمون كانوا رعاة للفنون والعلوم، أحبوا الأدب والكيمياء والحساب. عاشوا مع العلماء، وكانت لديهم مؤلفات إغريقية ولاتينية مترجمة إلى اللغة العربية. الإلياذة والأوديسا وإقليدس وغيرها. أسسوا مدارس وأكاديميات الطب والفلك والأدب.

أحمد صحح جداول بطليموس. عباس كان عالم حساب مرموق. الكيمياء والتقطير والمزاول والساعات وإشارات الأرقام الحالية، جميعها اختراعات عربية. لاشيء يتفوق على عذوبة أدبهم، أشعارهم مليئة بالدفء، النبى ﷺ فى كل مكان أوصى بالعلماء، وبمن كرسوا أنفسهم لفلسفة الحياة ولدراسة الأدب.

إذا كان العرب قد أهملوا علم التشريح فقد كان ذلك بسبب التحفظ الدينى، كان يوجد فى مكتبة القاهرة ستة آلاف كتاب عن الفلك، وأكثر من مائة ألف كتاب آخر. مكتبة قرطبة كان بها ٣٠٠٫٠٠٠ كتاب. العلوم والفنون سادت مدة ٥٠٠ سنة من أيام الخلفاء، وكانت تتقدم بسرعة إلى أن أنهاها غزو المغول.

سابعا : عن تعدد الزوجات

الرسول محمد ﷺ حدد عدد النساء اللاتى يستطيع الرجل أن يتزوجهن. قبل أيامه لم تكن لها حدود، وكان الغنى يستطيع أن يتزوج عددا كبيرا منهن. هو بذلك قيد تعدد الزوجات. لاتولد نساء أكثر من الرجال، لماذا إذا يسمح لرجل واحد أن يكون له عدة زوجات؟ ولماذا لم يطبق الرسول محمد تعاليم يسوع المسيح فى هذا الموضوع؟

واضعو القوانين فى أوروپا اليونانيون أو الألمان أو الرومانيون أو الفرنسيون أو الإسپان أو البريطانيون، لم يسمحوا أبدا بأكثر من زوجة واحدة. فى الغرب لم يسمح أبدا بتعدد الزوجات. فى الشرق من الناحية الأخرى كانو دائما يمارسونه طوال التاريخ، جميع الرجال اليهود أوالأشوريين، العرب أو الفرس التتار أو الأفريقيين استطاعوا الجمع بين عدة زوجات.

نسبت هذه الاختلافات إلى الظروف الجغرافية. آسيا وأفريقيا يسكنها رجال متعددوا الألوان. تعدد الزوجات هو الوسيلة الوحيدة لصقلهم معا حتى لايقوم الأبيض باضطهاد الأسود أوالعكس. تعدد الزوجات جعلهم يولدون من نفس الأب أومن نفس الأم. الأسود والأبيض يصبحان أخوين يريان أنفسهما وهما جالسان حول نفس المائدة، وهكذا لايستطيع لون فى الشرق أن يدعى تعاليه على لون آخر، ولكن لتحقيق هذا الهدف رأى الرسول محمد أن أربع زوجات تكفى.

قد يسأل الإنسان كيف يمكن السماح بأربع زوجات مع عدم وجود عدد من النساء أكثر من الرجال؟ ذلك لأن الحقيقة أن تعدد الزوجات لايحدث إلابين الأغنياء، وحيث إن هذه الطبقة هى التى تشكل الرأى العام، فإن اختلاط الألوان داخل هذه العائلات، هو وسيلة ملائمة للحفاظ على وحدتهم.

داخل مستعمراتنا، عندما نقرر تحرير السود من العبودية والتخلى عن تحيز اللون سيسمح واضعو القوانين بتعدد الزوجات.

لم تكن العبودية فى الشرق أبدا مثل العبودية فى الغرب، عبودية الشرق كانت كما يرى الإنسان فى الكتب المقدسة، تسمح بأن يرث العبد سيده، ويتزوج ابنته. معظم الباشوات كانوا عبيدا، وكذلك عدد كبير من كبار الوزراء وجميع المماليك مثل على بك ومراد بك بدأوا يعملون كخدم فى بيوت سادتهم، وصعدوا من خلال الموهبة أوالعطف. فى الغرب، العبد كانت له دائما منزلة وضيعة.

حرر الرومان عبيدهم، ولكنهم لم ينظروا إليهم أبدا على قدم المساواة مع من ولدوا أحرارا. أفكار الشرق تختلف كثيرا عن أفكار الغرب؛ ولذلك أخذ المصريون وقتا طويلا؛

لكى يفهموا أن الجيش الفرنسى كله لايتكون من عبيد يملكهم السلطان الكبير .

الوالد فى الأسرة هو حكمها الأول له كامل الحقوق على زوجاته وأطفاله وعبيده الإدارة العامة لاتتدخل أبدا فيما يحدث داخل الأسرة، خشية التعدى على سلطة الأب. زوجاته مقدسات ومحترمات حتى أثناء الحروب الأهلية. زوجات المماليك بقين فى بيوتهن بالقاهرة، ولم يتوقعن أبدا أن أى إنسان قد يتحرش بهن، كن محترمات وعشن فى حرية .

ثامنا : العادات والأخلاق

زوجات البكوات وكبار المماليك كن أحيانا يطلبن مقابلة السلطان الكبير يحضرن تحيط بهن حاشية كبيرة وجوههن مغطاة. طبقا لعادة هذه الدولة، لايستطيع الإنسان أن يحكم على قدر جمالهن، لكن أيديهن الصغيرة ووقفتهن المحترمة وأصواتهن الرقيقة، عادات تظهر رخاءهن وحسن تعليمهن، وتبين منزلتهن ونوعياتهن .

قبلن يد السلطان الكبير ، ورفعنها إلى رؤوسهن وقلوبهن، جلسن على وسادات حريرية وبدأن الحديث. عرضن ذكاء شديدا ودلالا كأفضل نساء أوروبا؛ لكى يحصلن على ماجئن من أجله .

كانوا عبيداً لأزواجهن، مع ذلك جميع الحقوق التى يكفلها الرأى، مثلا كذهابهن إلى الحمام المكان الذى تحاك فيه المؤامرات، ويجرى فيه أكبر جزء من الزيجات. أغا أنكشارية القاهرة، المسئول عن الشرطة، قدم خدمة كبيرة للجيش. كمكافأة له، سأل السلطان الكبير أن يزوجه من أرملة يشتهيها، هذه الأرملة كانت جميلة وغنية .

- ولكن كيف عرفت أنها جميلة هل رأيتها؟

- كلا .

ـ كيف تريدنى أن أمنحها لك؟ هل ترغب هى فى ذلك؟

ـ دون شك إن أردت أن تسألها .

فعلا بمجرد أن أخبروا هذه الأرملة برغبة القائد العام، أذعنت لها . مع ذلك هذان الزوجان لم يريا أويعرفا بعضهما أبدا قبل ذلك . عدد كبير من الزيجات تتم بهذا الأسلوب .

عندما ترحل الزوجات إلى مكة، يجلسن على نوع من المخادع المصنوعة من الخيرزان المجدول، مغطى ومغلق بالستائر، يوضع على ظهر الجمل، ويرتكز على جانبى السرج، ويتسع لجلوس امرأتين .

زوجة الچنرال مينو استمرت بعد زواجها فى الذهاب إلى الحمامات العامة برشيد(*) . جميع النساء كن يستقبلنها ويسألنها عن حياتها المنزلية، أخبرتهن عن الرعاية الفائقة التى يغدقها زوجها عليها، على مائدة الطعام يخدمونها أولا ،يعطونها أفضل الأشياء، يمسكون يدها عندما تسير من غرفة إلى أخرى، ويهتمون كثيرا بخدمتها وتلبية احتياجاتها ورغباتها . هذه الأقوال كان لها تأثير قوى على جميع نساء رشيد، دارت رؤوسهن وأرسلن التماسا إلى السلطان الكبير ؛ لكى يأمر المصريين فى جميع أنحاء مصر بمعاملة زوجاتهم طبقا لعادات الفرنسيين .

استرعى المعهد اهتمام الناس . المكتبة وجميع الأجهزة الميكانيكية والفيزيائية والأحجار والنباتات والأشياء الأخرى التى جمعها العلماء من الريف، وضعوها فى قصر المعهد أوفى حديقته . أخذ السكان وقتا طويلا ؛ لكى يدركوا مايفعله هذا الجمع الكبير من الشخصيات العاقلة المجتهدة الذين لايوجد لديهم هدف دينى، كانوا يعتقدون أنهم يصنعون الذهب .

أخيرا مع ذلك أصبح لديهم مفهوم أكثر دقة، ونال العلماء احترام الناس، ليس فقط من أساتذة القانون والشخصيات الرئيسية فى الدولة بل أيضا من عامة الناس ؛

(*) كانت مصرية .

لأنهم كانوا يتصلون كثيرا بالعمال، يعطونهم نصائحهم، ربما فى الأعمال الميكانيكية وربما فى الكيمياء، يوجهونهم فى أعمالهم. هذا وضعهم فى مرتبة رفيعة من الاحترام بين الناس.

حضر الشيخ المهدى جلسة دراسية بالمعهد، شرح مترجم له مايقال، كانت محاضرة ألقاها چيوفروى عن أسماك النيل. طلب الحديث، وقال: «إن النبى ﷺ أعلن أن الله خلق ٣٠٫٠٠٠ نوع من الحيوانات، ١٠٫٠٠٠ منها على الأرض والهواء، ٢٠٫٠٠٠ فى الماء». كان هذا الشيخ الأكثر علما والأكثر دراسة وعالى البلاغة.

فى أحد الأيام عندما كان كبار الشيوخ يجلسون مع القائد العام، وصل ضابط من قليوب ومعه تقرير أن العرب اعتدوا على قرية فقيرة وقتلوا فلاحا. أظهر ناپوليون غضبا شديدا، وأمر ضابطا كبيرا أن يأخذ ٣٠٠ فارس وأن يعاقب ويكبح المعتدين.

لأنه تحدث بحدة. سأله أحد الشيوخ: لماذا أنت غاضب؟ هل الفلاح الذى قتل هو أخوك؟

نعم **قال السلطان الكبير: جميع من يطيعوننى هم أبنائى.**

قال الشيخ الشرقاوى: «طيب... طيب... ماقلته صحيح، أنت تتحدث مثل النبى محمد ﷺ»

قام بعد ساعة لاحقة برواية هذا النقاش فى أحد المساجد الكبيرة وسط حشد كبير مما أسعد عامة الناس الذين هتفوا: الله أكبر، الله عادل، إنا لله وإنا إليه راجعون!